2017

مدونات معمارية عمرانية

د. علي عبد الرءوف

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر

د. علي عبد الرءوف
2017©Ali A. Alraouf
An Alchemy of Architecture, People and Places.

بعض الحقوق محفوظة

مدونات معمارية عمرانية
منشور برخصة المشاع الإبداعي
http://creativecommons.org

د. علي عبد الرءوف © 2017

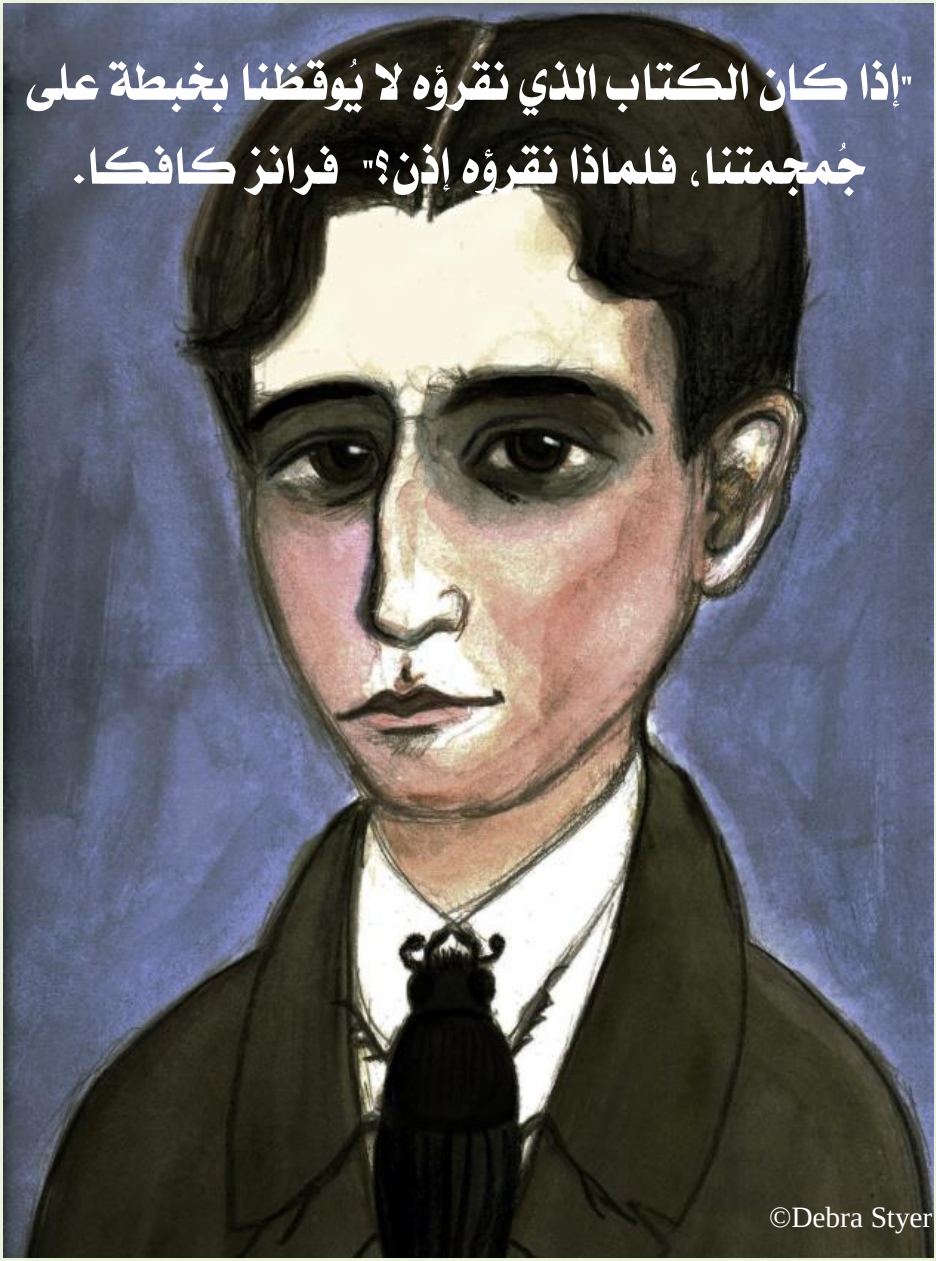
"إذا كان الكتاب الذي نقرؤه لا يُوقظنا بخبطة على
جُمجمتنا، فلماذا نقرؤه إذن؟" فرانز كافكا.
©Debra Styer

مقدمة

"القراءة تصنع إنساناً كاملاً، والمشورة تصنع إنساناً مستعداً، والكتابة تصنع إنساناً دقيقاً ". فرانسيس بيكون

"الكتابة شكلٌ من أشكال الصلاة .... الكتابة انفتاح جرح ما". فرانز كافكا.

"أكتب حتى أعرفَ كيف أفكر". جوان ديديون.

"كل ما عليك هو أن تكتب بشكل يومي حتى تصبح كاتباً". جيرالد برينان.

منذ ان قرات مقولة بيكون وانا اتطلع لفكرة الدقة والقدرة على الفهم العميق الذي تولده فكرة الكتابة المستمرة. ثم ابهرني كافكا في تعبيره عن روحانية الكتابة وايضا حالة الألم التي تتسبب بها لأنه الكتابة فعل كاشف. اما ديديون فقد أصابتني بالحيرة المطمئنة لأنها تعني انك تكتشف نفسك وفكرك وروحك وانت تتأمل ما تكتبه. شعرت دائما ان الكتابة فعل صعب لأنسان مسكون بالهموم ومحب بصدق لمهنته ووطنه. ووسط كل هذا جاء جيرالد برينان ليجعلني أطمئن أن من الممكن أن أكون كاتباً فقط إذا استطعت ان أكتب بصورة يومية. وعندما انتقلنا من عصر المقالات الى عصر المدونات، لم أتردد في ان أرفع شعار "أنا أدون إذن أنا موجود" وعندها انتظمت في التدوين بدعوة مقدرة من مدونات الجزيرة. لم اكن اتوقع ان مقالات في العمارة والعمران يمكن ان يتجاوز عدد قرائها العشرين الفا في عدة شهور، وتواضعت كل التواضع امام هذه الارقام، وقررت ان احرر المجموعة الاولى من مدوناتي في العمارة والعمران في شكل كتاب يتاح مجاناً لكل القراء المهتمين والمهنيين.

ما أجمل ان تجعلني الكتابة المنتظمة مؤديا للصلاة، مجروحاً، مهموماً، استكشف كيف افكر وأحاول ان اكون دقيقا.

حقاً أنا اكتب، أنا أدون، إذن أنا موجود.

علي عبد الرءوف

اغسطس 2017

المحتويات

مقدمة	4
داعش المظلومة: حالة التراث المعماري والعمراني في بلاد العرب.	6
مساجد البدروم.	11
الخوف من المساجد: من الإسلاموفوبيا إلى المسجدوفوبيا.	15
الرواية والمكان والانسان: سردية العمران وبنائية المدينة.	21
المعمارية زاها حديد: لا نهائية التمرد.	27
قطر والعبودية والمتحف الشجاع.	33
مواطنو الخوف والمدن المنكسرة الممزقة.	39
المدينة والساحة والثورة: عن ليبتزج.	45
عبد الوهاب المسيري، المفكر المعماري والعمراني.	51
أنا امشي إذن أنا انسان.	57
تأملات معمارية مصرية في الرمزية التركية.	63
جدران وأسوار.	68
المعماري حسن فتحي تلميذ الفقراء.	74
لماذا يحب المعماري رمضان؟	80
الإسلامي ليس الحل أحيانا: حكاية المدينة والمبنى.	86
الملاعب العربية من ساحات معارك إلى ملتقيات إنسانية.	92
مكة المكرمة والوردة الحمراء والساعة العملاقة.	98
متى يعلنون وفاة الفراعنة؟	103
يلا نلعب عشوائي :افلاس الرسمي وثراء العشوائي.	109
سينمائية المدينة: حالة العلمين الجديدة وثلاثية دبي المظلومة.	115
التفريغ المادي والمعنوي لميدان التحرير.	121
قاهرتين وسطحين وغيتارين.	127
الفوضى العمرانية الخلاقة في الميدان وعلى الجسر.	131
التعريف بالكاتب	137

علي عبد الرءوف

داعش المظلومة: حالة التراث المعماري والعمراني في بلاد العرب

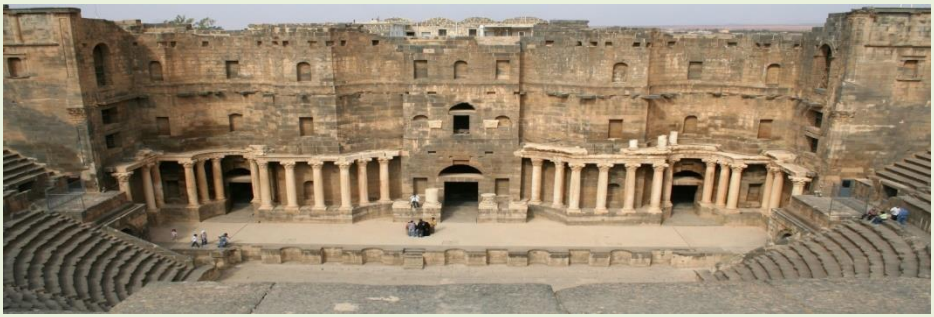

في صباح الثاني من شهر مارس عام 2001، أستيقظ العالم على خبر بدء تفجير حركة طالبان لتماثيل بوذا التاريخية المحفورة في جبال وادي باميان في وسط افغانستان. صرخ العالم أنظروا ماذا يفعل المتطرفون؟ وأنتقض خبراء منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) يعلنون حزنهم وصدمتهم ثم اصدروا قراراهم عام 2003 باعتبار الموقع أحد مواقع اليونسكو للتراث العالمي. وفي عام 2015 دمرت داعش معابد رومانية وتماثيل تاريخية في مدينة تدمر السورية، وهي التصرفات التي وصفتها ايضا منظمة اليونسكو بأنها جريمة حرب، واستمرت داعش في جريمتها لتدمير المدينة التي تعتبر متحفاً تاريخياً يحتوي على طبقات تاريخية لحضارات متعددة مرت بالمكان وتركت بصماتها وعلاماتها. عندما تبحث عن المبررات التي صاغتها حركة طالبان أو داعش لتدمير هذه المواقع التراثية، يدهشك الاتفاق حول أنها تتنافى مع العقيدة أو قيم

المجتمع. هنا تتبلور إشكالية شديدة الأهمية حول مشروعية تحديد ما هو التراثي، التاريخي، الجدير بالحفاظ، المعبر عن المجتمع، المُكون للهوية؟ من هو المؤهل لتحديد المعايير التي على اساسها نقبل أن يكون جزء من تاريخنا يستحق الحفاظ وجزء أخر يستحق الهدم والازالة؟ إن قيمة تاريخنا وماضينا هي في الواقع قراءة معاصرة آنية نقوم بها الان، وبالتالي تتدخل الكثير من المؤثرات الحالية في تحديد قيمة التاريخي القديم. وكما يقول فرانشيسكو باندارين القيادي والخبير في منظمة اليونسكو، فان الماضي هو قراءة معاصرة جديدة لما حدث بالفعل. أو تأمل طرح المؤرخة البارزة جانيت ابو لغد وهي تصف التاريخ بانه وليد اللحظة المعاصرة وليس فقط وليد الماضي.

في الواقع فإن التراث هو قيمة تتدخل التركيبة المجتمعية والقيمية المعاصرة في صياغته وتحديده والحفاظ عليه والدفاع عنه Socially Constructed. إذن عنصر الزمن هنا شديد الاهمية حيث يبدو ان القيم تتغير مع الزمن. وكما يكتب البديع جابرييل ماركيز عن اخلاقيات الزمن Morality of Time، فقد يكون من الجائز ان ما يُهدم الأن سنبكي عليه لاحقا وقد يجوز ان من ندعي اهميته الان سنكون من المرحبين بهدمه في المستقبل. هل تجد هذا الطرح مربكاً؟ إذن دعني أقدم لكم أمثلة صارخة من سياقنا العربي تجعلك تتيقن أن داعش مظلومة إذا ما قورنت في إجرامها تجاه التراث المعماري والعمراني بما فعلته وتفعله مدن ودول ومجتمعات وأنظمة في عالمنا العربي. تأمل مثلا كل دول الخليج بلا

استثناء، وكيف دفعتها عوائد النفط الغير مسبوقة في طفرتها الاولى، إلى التحرر من كل القديم والاندفاع إلى نمط ما اعتقدوا أنه حياة عصرية تبدأ بالتخلص من كل فصول الماضي. هذا المفهوم والذي دعمه الخبراء الغربيون، ادى الى التخلص من أحياء بل أجزاء كاملة من مدن الخليج القديمة حتى وصلنا إلى الحالة التي كان دخول البلدوزر لهدم حي خليجي قديم في دبي أو ابوظبي أو جدة أو الدوحة أو المنامة هو مناسبة للاحتفال ببدء التطوير والتحديث وانتهاء حقبة الفقر والقديم البائس. فجأة كل تراث ما قبل حقبة النفط تم إزالته وبصورة مشروعة ترعاها الحكومات وتم إستبداله بمشروعات حداثية مطورة أو على الأقل وصفت بذلك. ثم كانت الموجة الثانية من الهدم والإزالة في نهايات الثمانينات وبداية التسعينات حيث بدأ التخلص من المشروعات الحداثية لفتح الطريق لتقليد مدن غربية بالمشروعات المتعولمة وناطحات السحاب الزجاجية ومجمعات المولات التجارية العملاقة وأصبحت دبي هي النموذج لأنها تقلد ناطحات سحاب شيكاجو و أبراج فنادق لاس فيجاس ببراعة.

دعنا ننتقل من مدن الخليج الى المدينة العربية الاكثر اهمية في عالمنا العربي، القاهرة، مُلهمة الادباء والشعراء وسَاحرة الرحالة والمستشرقين. مع كل النضج الثقافي والوعي التاريخي وفهم القيمة التراثية لحقبات القاهرة التاريخية، فان المرء يندهش من كم المباني والمناطق التي هُدمت ومازالت تُهدم حتى هذه اللحظة. إن كم القصور والمساكن والمساجد والوكالات والمباني التاريخية في سياق القاهرة العمراني، والتي هُدمت لكي تستغل اراضيها في مشروعات

تجارية فجة رخيصة الشكل والمضمون، يفجر آلاما مماثلة لكل ما سببته حركة طالبان وداعش في أفعالهم المجرمة تجاه النتاج الحضاري الإنساني. ولكننا لا نثير قضية ولا ندعو اليونسكو للشجب والإدانة لان الفاعل رسمي حكومي. بل تأمل ما حدث في سياق ميدان التحرير وكيف هُدم مبنى مقر الحزب الوطني. إن قرار القضاء على المبنى يمكن تفسيره بأنه امتداد واضح لسياسة تفريغ ميدان التحرير وسياقه، حيث إن المبنى يمثّل فصلاً من تاريخ مصر النضالي والثوري يجب محوه، تبعًا لأطروحة النظام الحاكم، لأن المبنى فصل ثوري، والثورة ضد مبادئ الاستقرار الزائف الذي سوّقوا له بامتياز ولعقود طويلة .ولا يدرك هذا الفريق، بأطماعه السياسية المحدودة، أن الذاكرة الجمعية للشعوب تجسدها المباني العامة حتى لو شيدت في حقب تغيرت أو تبدلت، أو حتى لو ثار الناس عليها، وأن السعادة بالهدم هي سعادة الهزيمة وتزييف التاريخ. لو تركت القاهرة وتحركت إلى مدن مصرية اخرى فسيؤلمك كم المباني والمناطق التي هدمت في بورسعيد ورشيد والمنصورة والفيوم وقنا واسيوط وكل محافظات مصر تحت اشراف حكومي بامتياز. تحرك من مصر صوب العراق مهد الحضارة وتأمل ما يحدث في مدنها، ودرجة التزييف للوعي التي نندفع بسببها للاحتفال بتحرير مدينة الموصل بينما الواقع ان المدينة خسرت البشر والحجر، فقد أُجبر سكانها على الرحيل، وسقطت مآذنها وهدمت قبابها. وعندما تصرخ متألماً يكون الرد لا تحزن فسنبدأ إعادة الإعمار فوراً.

ومن العراق الأسد الجريح إلى سوريا الثائرة البطلة حيث يصدمك ما فعله النظام الحاكم المستبد بمدينة من اكثر مدن العالم تعبير عن عمارة وعمران المجتمعات الاسلامية، حلب الرائعة التي خرجت منها أول مظاهرة مناهضة لنظام الأسد وحزب البعث فيها في "جمعة العزة" بتاريخ 25 مارس2011 . وتتحسر عندما تطلع على احدث إصدارت تقييم (اليونسكو) لحجم الأضرار في المواقع الأثرية في مدينة حلب القديمة الذي يوثق أن ثلث المدينة تم تدميره بالكامل وأن ثلثي المدينة قد تضرر بشكل كبير. اذا لم تكن قد كونت بعد قناعة على ان انظمة وحكومات عربية تفعل بتراثها ما هو اكثر جرماً من أفعال داعش فيجب ان تنظر جنوبا إلى اليمن السعيد الذي لم تنته فقط حملة إعادة الأمل المزعومة بانتشار وباء الكوليرا بين اطفاله وموت آلفين منهم بسبب المرض، ولكن ايضا تراثه المعماري والعمراني يُسحق بطائرات عاصفة الحزم وقذائف إعادة الأمل!! يمكن ان نستكمل بعرض عشرات بل مئات من الأمثلة التي هدم فيها التراث المعماري والعمراني مع سبق الاصرار والترصد في مدننا العربية وأجُبرنا على ان نعتقد انه رصيداً متخلفاً بلا قيمة ولا يستحق الحفاظ ثم أيقظونا لاحقاً وقالوا لنا أين مباني وشوارع وحكايات الزمن الجميل؟ أحيانا كثيرة عندما استغرق في تأمل حال مدننا العربية اجد نفسي أتسأل: **من يحمي التراث من حماة التراث؟**

مساجد البدروم

ظهرت في العاصمة المصرية القاهرة ومدن اخرى في الثمانينات، موضة كان ظاهرها طيب أما جوهرها فكان يستحق التساؤل والمواجهة واستشراف مستقبلها. هذه الظاهرة يمكن وصفها بانتشار "مساجد البدروم" أو مساجد الاقبية السفلية في الكثير من العمارات السكنية. ثم انتشرت الظاهرة لتشمل مدن عربية اخرى. كانت السلطات المدنية والأمنية وبمباركة من وزارة الاوقاف قد سمحت وحللت لملاك هذه العمارات السكنية بتحويل اجزاء من البدروم الى مكان للصلاة ممكن ان يسمى زاوية أو مصلى أو مسجد. اندفع الكثير من الملاك الى استغلال الفرصة الذهبية ليس بالضرورة من اجل احتضان الراغبين في تأدية الفروض ولكن لأن القرار كان يتضمن إعفاءات سخية من الضرائب العقارية لكل من يقدم جزء من طابقه الواقع تحت الارض لكي يستوعب فعل الصلاة الروحاني

المقدس!! واصبحت تجربة الصلاة تتضمن النزول تحت الارض إلى فراغ رطب مظلم كتب على بابه الخشبي "مسجد النور"!!!

تدريجياً، تطور إهمالنا لقيمة فضاء أو مكان الصلاة في البيئة الانسانية والروحانية والمعمارية والعمرانية ليتفشى هذا الاهمال ليس فقط في حالات السكن الخاص بل انتقل الى المبنى العام. على سبيل المثال نلاحظ ان الكثير من المباني الادارية أما ان تحول حجرة مهجورة الى ما يسمى غرفة الصلاة، وهي غالبا المخزن المجاور لدورات المياه. أو ان يتحول فعل الصلاة الى عمل يؤكد السلوكيات التي تتناقض مع قيمة الفعل الروحاني بل وقيمة الاسلام كله. لاحظ مثلا التصرفات الاجتهادية العشوائية التي ينتج هنا فرش سجاجيد الصلاة في ممرات المكاتب والوزارات والادارات أو في البهو المتسع في كل دور والمواجه لمنطقة السلالم والمصاعد. فجأة تتوقف الحركة في ادوار متعددة من المباني الادارية وخاصة الحكومية. أتذكر تجربتي الخاصة في مبنى حكومي هام في القاهرة عندما حاولت الخروج من المصعد في ادوار متعددة وكان المشهد متطابقا كلما انفتح الباب: صف من المصلين يواجه باب المصعد بكل خشوع. وانتهت التجربة بعد خمسة عشر دقيقة على الاقل امضيتها متحركا بين السماء والارض محاولا الخروج دون ان افسد صف الصلاة او دون ان اقطع على بعض الموظفين اندماجهم في تسبيحات ما بعد الصلاة. نتذكر ايضا المشهد الكلاسيكي حيث تتحرك جموع الموظفين وقد شمر البعض عن قدميه لما تحت الركبة بقليل، وارتدى قبقابه الخشبي بوقعه الموسيقى الخلاب او الحداثي منهم يميل الى

الشبشب البلاستيكي الذي يتركه تحت مكتبه ويتجول في الممرات محاولا الوصول الى دورة المياه. ثم يعود من رحلته وقد سمح لقطرات الماء المنسدلة على ذراعيه وقدميه بترك اثار على كل الممرات التي تحرك خلالها. لا اتحدث هنا عن حالة الحمامات بعد عدة حالات من الوضوء الاسطوري التي تجعل المراقب يتسأل هل كان هذا وضوء مجموعة من الاشخاص ام ان المكان تعرض لموجات التسونامي العاتية؟

الأكثر خطورة هو استمرارية إهمال فعل الصلاة ودفعه إلى المناطق الهامشية، البدرومات والطرقات والحجرات المظلمة حتى في المجمعات التجارية (المولات). هذه المجمعات التي اصبحت تلعب دوراً جوهرياً في حياة المجتمعات العربية واصبحت الاكثر اهمية في المدينة العربية المعاصرة. فقد تحولت المجمعات التجارية إلى مراكز التسوق والترفيه والاستجمام وملتقى العائلات وملاعب الاطفال وبؤرة تجمع الشباب. ولكني اتسأل ايضا لماذا يخصص حيز لممارسة الصلاة في هذه المجمعات الفاخرة العملاقة في بدرومات قبيحة مظلمة او في غرف هامشية بجوار دورات المياه نصل اليها من خلال ممرات طويلة باردة صماء، وكأننا نخجل من الصلاة او انها فعل لا يستحق ان يراه الاخرين. دعونا نتخيل ان هذه المجمعات التي تحتوي على المحلات التجارية العملاقة وسلاسل السوبر ماركت العالمية والكافتيريات الفاخرة واماكن التزحلق على الجليد وافنية الطعام من كل الجنسيات والمقاهي والنافورات والحدائق الداخلية بل

والجداول المائية، ولكنها فجأة تهمش حيز الصلاة وتعطيه قيمة ضئيلة محدودة. قد يبادر البعض ويقول ان اصحاب المجمعات التجارية تجار والتاجر يريد المكسب وكل متر مربع في المجمع يجب ان ينتج مالاً ويدر ربحاً. هذا منطق تجاري له وجاهته، ولكنه يتداعى بسهولة عندما نراه من خلال المنظومة الانسانية الاجتماعية الروحانية بكل ابعادها، وليس فقط من منظور الربح المالي الذي يمكن ان يدفع الانسان للتضحية بكل قيمه ومبادئه.

اعتقد ومع كل ما يحدث للإسلام في حقبتنا المعاصرة، وتشويه صورته والتقليل من قيمة المنتسبين لعقيدته، ان الوقت اصبح ملائماً لثورة مكانية على أحيزة الصلاة في عماراتنا السكنية ومبانينا الحكومية والادارية ومجمعاتنا التجارية. حقا ان الاوان لان يصبح حيز الصلاة فضاءاً مركزياً جميلاً منسقاً مبهجاً يرسل رسائل شديدة الايجابية عن الاسلام والمسلمين. فضاء يجذب الناس للصلاة ويدعوهم للتمتع بأجوائه وتصميمه ومركزية وجوده. فضاء صمم من اجل الصلاة وليس فضاء تم اللجوء الاضطراري له لممارسة الفروض والعودة السريعة الى بهجة فضاءات المجمع التجاري الرحبة المضيئة الجميلة. هيا نتكاتف لندفع اماكن الصلاة خارج البدرومات وخارج الغرف المهمشة ونضعها في اماكن تليق بالصلاة التي هي عماد الدين. فاذا كانت الصلاة هي حقا عماد الدين، افلا يستحق مكان الصلاة ان يكون عماد التجربة المكانية، ومصدر بهجة وفضاء محرض على قيم الاسلام ومحفز للجمال والتوافق والراحة النفسية والبصرية، لا أن يكون بدروماً بارداً.

الخوف من المساجد: من الإسلاموفوبيا الى المسجدوفوبيا

"لا يوجد أفضل من الاستثمار في صناعة الخوف". هذا شعار لحملات فائقة النجاح يمكن رصدها في العالم كله من دول متقدمة تنعم بالرفاهية الى دول مسحوقة عظيم احلامها رغيف وكوب ماء نظيف. واحدة من أهم حملات الاستثمار في صناعة الخوف هي ظاهرة الاسلاموفوبيا "الخوف من الإسلام Islamophobia". كانت احداث 11/9 وهدم برجي التجارة في قلب نيويورك بداية إنطلاق موجات لم تنتهي من كراهية الإسلام وتعظيم خطاب الخوف من مبادئه وقيمه التي سوقت على كونها الإرهابية الدموية الرافضة للتقدم والتحضر وكل مقومات المشروع الانساني المعاصر. ولكن المراقب المنصف يلحظ امرين مهمين، اولهما وجود أصوات عاقلة في السياق الأوروبي الأمريكي تتحدث

بمصداقية عن صناعة الاسلاموفوبيا وإستغلالها في تشوية إدراك وعي الشعوب من اجل حملات انتخابية أو مكاسب شعبوية. أو أراء واعية تفند وتناقش أهمية تحويل المسلمين إلى الأعداء وقيمة استغلال هذا في استنزاف الامة وإخضاعها، واعتقد ان المشهد الشرق الأوسطي الحالي يؤكد عمق هذا التفسير. الأمر الثاني، هو ما اسمية "الاسلاموفوبيا الذاتية" وهي أننا كمسلمين نساهم في تكثيف الصورة عن المسلم الإرهابي وتعزيزها محليا وإقليميا وعالميا. تأمل مثلا ما فعله كل طغاة العرب من بن علي في تونس الى بشار في سوريا عندما ادعوا جميعا أنهم يحاربون الجماعات الإسلامية الإرهابية بينما هم يسحقون الثائرين في ميادين وفضاءات المدن اثناء الربيع العربي. أو تأمل الموجة الحالية التي تطلب "تجديد الخطاب الديني" مدعية ان كل مشاكل البلاد العربية في قضايا التعليم والصحة والحرية والعدالة والسعي إلى الديمقراطية واحترام حقوق الانسان، سببها الوحيد اننا لم نجدد الخطاب الديني !!!!

الحقبة الجديدة التي انتقل اليها العالم تجاوزت الخوف من الاسلام كأيدولوجية وانتقلت إلى الخوف من كل ما يرمز للإسلام أو يعبر عنه. حملات منظمة ومظاهرات متدفقة في مدن اوربية وامريكية ترفض كل ما يرمز للإسلام: الذقن والحجاب ثم الاكثر خطورة المساجد. "لا نريد مزيدا من المساجد" أو "قولوا لا للمساجد"، هذه هي شعارات كتبت على لافتات يحملها الالاف في شوارع مدن عالمية مؤثرة. ومن هنا كانت صياغتي للتعبير "الخوف من المساجد Mosquephobia" الذي استخدمته في ابحاثي عن المساجد المعاصرة وخاصة

في السياق الغربي، تأكيداً لفكرة إنتقال مفاهيم الخوف من العقيدة الى الخوف من المبنى ومن الرمزي إلى المادي. إذن نحن حقيقة نواجه لحظة فارقة وتحديات متعاظمة وصورة ممزقة ومبعثرة عن الاسلام اقليميا وعالمياً. علينا مسئوليات جسام في كل مجال وهنا أقدم مساهمتي في بلورة طرحا مغايرا لقيمة عمارة وعمران المسجد في هذا السياق وخاصة للمساجد التي تبنى في الغرب.

زرت معظم المساجد والمراكز الاسلامية في اوروبا وبعض الولايات الامريكية، وعلى الرغم من الانشطة والفعاليات الخاصة بالجاليات الاسلامية، إلا أن عمارتها وعمرانها يتمايز بتكثيف الانعزالية ورفض السياق المحيط وتعزيز الفجوة بين جالية متشرنقة، وبين مجتمع محيط اخذنا بأنفسنا القرار بان ننتمي إليه ونحمل جنسيته. كنت دائما اتسأل ما هي قيمة تصميم مسجد على طراز مملوكي او عثماني أو فاطمي في قلب مدينة أوربية أو أمريكية؟ العمارة وعلى مدار التاريخ وفي كل النطاقات الجغرافية، كانت تعبيرا متكاملا عن السياق الشامل وتفاعلا معه. فلماذا نعيد تكرار الماضي؟ هل نعاني من إفلاساً إبداعياً؟ هل توقف المعماريون عن الابداع في تصميم المساجد واكتفوا بإعادة تكرار ما انتج في حقبات بل والاحرى قرونا ماضية. لقد ألبسنا مجموعة من الأشكال صفة القداسة ونحن لا ندرك ان المسجد في بدايته، وحتى اليوم ليس له شكل مقدس لان بكل بساطة عظمة الإسلام انه جعل كل بقعة على الارض صالحة لان تكون مكانا للصلاة. من قال ان المسجد هو قبة ومئذنة ومشربية وابواب خشبية وحوائط

حجرية وإلا فقد قداسته وسقط في امتحان الهوية؟ ان المئذنة مثلا اصبحت قيمة رمزية وليست اداة وظيفية وبالتالي المجال ارحب للإبداع في التعبير عن الرمزية الرأسية والتواصل مع السماء.

ان المحاولات التي تدخل بنا الى آفاق جديدة في تصميم المساجد محدودة جداً وتلقى مقاومة عنيفة بل وأحياناً تتهم بزعزعة الإسلام وكأن العقيدة يهددها تصميماً جديداً أو طرحاً ابداعياً متجاوزاً للمكرر الممل. توجد أمثلة في السياق العربي الاسلامي تعد على اصابع اليدين حاول فيها المصممين ان يركزوا على تقديم تجربة انسانية روحانية اجتماعية وايضا تشكيلية وبصرية لا تنسخ ما سبق ولا تكرر نموذجاً تاريخياً بحجة واهية ان القديم هو تعبير عن الذات والهوية. محاولات تنطلق من تساؤلات مشروعة عن معنى وقيمة المسجد في اللحظة المعاصرة، لحظة المصير والتهديد والتساؤل. كيف نقبل ان ما بني من الف عام يعبر عن حضارة تدعي التطور، ونستمر في تكراره ونهدد من يتجاوزه بانه لا يستوعب ثوابت تصميم المسجد؟ كيف يكون لتصميم المسجد ثوابت والله سبحانه جعل الارض كلها سجادة صلاة لكل مسلم راغب في الاقتراب بقلبه وعقله من الله سبحانه وتعالى. حتى في مدننا العربية، مدن المجتمعات الاسلامية، فقد المسجد دوره منذ عقود وتحول الى مكان لممارسة الطقوس (سبعة عشر ركعة موزعة على خمس صلوات كل يوم) تحت اشراف أمني مكثف. بل أن بعض الدول العربية تقنن فتح وغلق المسجد ليكون دخوله متاحاً فقط في فترة زمنية مرتبطة بإقامة الصلاة ثم يغلق انتظارا للصلاة التالية!! هل هذا هو بيت الله؟ اين

هذا من قيمة المسجد في الاسلام كمركزاً فكرياً روحانياً سياسياً معرفياً بل وترفيهياً ترويحياً؟

أعتقد اننا على المستوى الفكري وعلى المستوى الابداعي التصميمي، مطالبين بان نمر بتحولين رئيسيين حتى نعيد المساجد إلى قيمتها قلوبا نابضة بالحياة والحوار والدعوة والتفاعل والمعرفة. التحول الاول على المستوى الاقليمي وهو ان نعيد بإرادة كاملة ووعي ناضج ادوار المساجد الاصيلة وتحويلها الى مراكز نور ومعرفة وثقافة وحوار وننفض عنها تماما ادعاءات انها مراكز تفريخ وإيواء واعداد الإرهابيين المسلمين كما يدعون. هذا عار علينا واسلاموفوبيا ذاتية بامتياز. دعونا نبدع في ضم الانشطة التي تحول المسجد الى مكاناً مفعماً بالحياة.

اما التحول الثاني فهو تحول عالمي يتطلب تفهماً ووعياً ان بناء مسجد في اوروبا او امريكا ليس هدفه ومبتغاه خلق شرنقة لما يسمى بالجالية الاسلامية، وانما هو سياقا منفتحا شفافا يتجاوز الاشكال وينطلق الى ارتباط معاصر مع المجتمع الذي انشئ المسجد خلاله. المسجد والمركز الاسلامي في السياق الغربي يجب ان يكون فضاءاً روحانيا يملك القدرة لدعوة باقي المجتمع للانسياب داخله والتمتع بأنشطته ليس من اجل دعوتهم للإسلام، ولكن من اجل ازاحة كل الضباب عن العقيدة الاسلامية المتزنة وعن الانسان المسلم المتزن المتسامح المتميز بقبول الاخر في سلام وتعقل وكرمه في تعزيز ثقافة الحوار والاندماج والتفاعل. لن

اندهش اذا كانت المساجد والمراكز الاسلامية المنفتحة الشفافة سببا في اقبال بعض افراد المجتمع الغربي على الدخول في الاسلام فالموثق ان الانسان يقترب بحماس ممن يحترمه ويقدره ويدعوه ويتحاور معه ويستمع اليه على الرغم من عمق الاختلاف الأيديولوجي الذي لا يتم تجاوزه الا بالحوار، وليس بالقباب والحوائط المصمتة والابواب المغلقة المزركشة على الطراز المملوكي.

الرواية والمكان والانسان: سردية العمران وبنائية المدينة

منذ قرأت مقولة العظيم ويليام شكسبير "ماذا تكون المدينة سوى البشر"، وقد تزايد اهتمامي بعلاقة الانسان بالمكان. وقد تحول هذا الاهتمام الى مشروع نقدي بحثي تبلور في كتابي الاخير "مدن العرب في رواياتهم" الصادر مطلع العام الجاري. كان هدفي الرئيسي هو اختبار الأدوار التي يمكن أن يلعبها الإبداع الروائي في إعادة اكتشاف المدينة وعمارتها وعمرانها، وكذلك استشراف مجالات أو روافد إبداعية ملهمة يمكن أن تشكل حقبة أو حقبات جديدة ومتوالية في العمارة والعمران العربي المعاصر.

إن المدينة ليست مجرد بنايات وشوارع وأسوار وبيوت وحواري وميادين، وإنما هي أيضا روح خلاقة تتبلور في شكل تجليات متعددة منها اللغة والأسطورة

والتراث والمقدس والفن والأدب. هنا نركز على مكونين رئيسيين؛ الأول يؤسس لفهم معمق عن موقع المكان في السرد الروائي وخصوصية هذا الموقع. ثم فهم قيمة الرواية في العمل الإبداعي وعلاقة هذا المجال المتميز بإطارين جوهريين في تشكيل البيئة المبنية وهما العمارة والمدينة. إما المكون الثاني فيركز على الكيفية التي رصدت بها الرواية العربية مواقف متباينة من المدينة العربية وعمارتها وعمرانها ومنطق تخطيطها. هذه المواقف المتباينة، تتراوح بين الأطروحات النقدية المحللة لما تواجهه البيئة العمرانية والمعمارية، وخاصة في المدن التي تتسم بعمق تاريخي وشخصية تراثية تقليدية متميزة. كما تشمل تلك المواقف صياغة أطروحات تنقد حالة التغريب وانتشار النموذج الحداثي دون استعداد واضح من المجتمع للتفاعل مع أماكن تصاغ عمرانها وعمارتها من خلال مدارس تصميمية بعيدة عن قيم ومبادئ المجتمعات التي يصمم لها. من التساؤلات النظرية الأساسية، ما له علاقة بتصور السرد الروائي للمدينة وبيئتها المبنية. ما هي المدينة الروائية، وكيف يمكن تشكيلها؟ كيف يمكن أن نصنف الإدراك المكاني في الرواية؟ الواقع أن في الرواية هناك مدنا متنوعة، مدنا متخيلة ولا مرئية، ومدنا واقعية مرئية وموجودة، على غرار الإدراك الواقعي لمدينة لندن في أعمال تشارلز ديكنز أو مدينة القاهرة في أعمال نجيب محفوظ أو مدينة الإسكندرية في سرد إبراهيم عبد المجيد. ولذا من المهم صياغة مجموعة من المفاهيم التي تتضافر بصورة عضوية لتشكل الطرح الفكري وهي:

المفهوم الأول: العلاقة بين الرواية والمكان هي علاقة حتمية أو علاقة وجود. فالرواية بناء درامي متكامل يتمكن فيه الكاتب من خلق عالم تتفاعل فيه الشخوص والإحداث والأماكن. والمكان يمثل "مسرح الحدث" في كل من الرواية والعمارة.

المفهوم الثاني: الرواية في مجملها، ترصد علاقة إنسان ما بمكان ما في تاريخ ما. هذا الرصد يمكن أن يتنوع ما بين ثلاث احتمالات للتعامل مع إشكالية المكان. أولها أن هذا المكان واقعا حقيقيا له بيئته المادية الملموسة والمعروفة في نطاق جغرافي معلوم. ثانيها أن يكون المكان نسيجا افتراضيا لعوالم خيالية لا واقعية وثالثها أن يكون التعامل مع المكان كنطاق استشرافي مستقبلي.

المفهوم الثالث: وهي ترتبط بفرضية إمكانية رؤية وفهم إي مدينة عربية من خلال السرد الروائي الذي أبدع عنها وخلالها. أي أننا يمكن ان نقدم تصورا متكاملا ومتفردا عن مدينة ما من خلال فحص مجمل النصوص الروائية التي كتبت عنها وخاصة تلك التي حرصت على فهم المدينة كسياق ومحتوى للتفاعل الإنساني المكاني الزماني.

بناء على المفاهيم السابقة تأتي أهمية القراءة النقدية التحليلية للإبداع الروائي المرتبط بالنطاق جغرافي مكاني معين لقدرتها على تقديم تصورا أكثر عمقا ودقة لتعقيد وتركيب وربما إعادة تركيب علاقة الإنسان بالمكان. لقد تعددت الأعمال الروائية التي صدرت في العالم العربي وقدمت في نسيجها الروائي فهماً أو تصوراً أو نقداً للعمارة والعمران العربي المعاصر. ومن ثم تأتي اهمية دراسة فراغية أو فضائية الإبداع السردي الروائي، أو بالأحرى اختبار فكرة العلاقة بين الفراغ المكاني والسرد الروائي. أن العلاقة بين الرواية والعمارة وثيقة، ولكنها أيضا متعددة المستويات ومتنوعة الأدوار. فمن الدراسة يمكن أن نرى التداخل العميق بين الأعمال الروائية وبين حركة العمارة والعمران. هذا التداخل يمكن أن يصيغ آفاق جديدة في التعليم والممارسة على السواء من خلال فهم ثلاث ادوار رئيسية يمكن أن تقدمها الرواية:

الراوية كعمل توثيقي: لعبت الرواية دورها التوثيقي للمكان وعمارته وعمرانه. فالتسجيل الزماني والمكاني يحول الرواية أحيانا إلى فن فوتوغرافي، ولكن بصورة تتجنب جمود وبرود وأحيانا حيادية الصورة الفوتوغرافية، لأنها على الرغم من توثيقها الزماني والمكاني، إلا أنها تستعيد ديناميكيتها وحيويتها عندما تبدأ عملية التلقي. وعندما يتلقاها القارئ بتجاربه ومشاعره يبدأ في تفكيك الصورة، وإعادة بنائها ومزجها بما يريد من معاني. وهنا يتحول العمل الروائي إلى كيان صلب حافظ لتاريخ مكاني أو إنساني. حقا تتعرض المدن والسياقات العمرانية والإنسانية بها للسحق والدمار ويبقى توثيقها المباشر في الصور

الفوتوغرافية والأفلام الوثائقية، أو توثيقها الإنساني التحليلي المتجدد في الأعمال الروائية.

الرواية كعمل نقدي: الرواية إذا أدركت واستوعبت كأداة نقدية في العمارة والعمران، يمكن أن نستشف منها قضايا نقدية ملحة وتلفت نظرنا إلى بقاع قد لا يسقط عليها الضوء أبدا في المشهد المعماري العمراني حين يستوعب بأعين المتخصص المهني المحترف فقط. كما يمكن أن تلعب الرواية دورا مقاوما في إيقاف استيراد القيم الجمالية الغربية والاستسلام لها.

الرواية كعمل ملهم: تقدم الروايات على المستوى المعماري والعمراني ما يعرف بالفراغات التخيلية أو الفراغات اللامادية التي تمثل ذخيرة إبداعية ورافد ملهم ومهم للمعماريين والعمرانيين. ومن هنا قد يكون من الجائز ان تتبنى استوديوهات التصميم والتخطيط في مدارس العمارة، أفكاراً حول تحويل الفراغات التخيلية في النصوص الروائية إلى فراغات مدركة في التصورات المعمارية والعمرانية. ومن ثم فقد يكون من الضروري للمعماريين والعمرانيين سواء العاملين في الأطر الأكاديمية أو أوساط الممارسة المهنية، إدراك قيمة وقدرة الرواية بشقها ألتوثيقي أو النقدي أو الملهم على تقديم إجابات لتساؤلات مشروعة منها:

- هل يكون من العدالة أن نترك لأحفادنا مدن إسمنتية حديدية باردة ومشوهة كما صورت قسوتها نصوص روائية متعددة؟

- هل مدينة ناطحات السحاب هي الإجابة النموذجية لمستقبل العمران العربي والخليجي؟
- هل تتحول مثل مدينة القاهرة بسيطرة ثقافة الزحام إلى مدينة قاسية تتنافس فيها الجماعة القاطنة بها بدون رحمة وبلا إنسانية؟
- هل يمكن ان تساعد الرواية في ايقاف النزيف التراثي المستمر في كل المدن العربية؟
- هل يمكن أن تساهم الرواية في أن تستعيد المدن العربية والخليجية عامة ومدينة القاهرة خاصة، روحها التي تتشكل من أرواح البشر القاطنين بها، تتأثر بهم ويتأثرون بها؟
- هل يمكن أن توثق الرواية الملهمة مراحل فقدان روح المدينة؟

ما أريد ان أوكده في هذا السياق أن الرواية بأدوارها الثلاث، قادرة على تنبيه وتحفيز والهام المعماريين والعمرانيين والمخططين لصياغة حقبة أكثر إنسانية في العمران العربي المعاصر شريطة أن تعتبر من قبل المعماريين والعمرانيين على أنها مجال إبداعي متفرد يملك قدرات نقدية وطاقات إبداعية ملهمة ويستحق الاقتراب الشديد منه في حال وجود رغبة صادقة لصياغة مستقبل أفضل لعلاقة الإنسان بالمكان في المدن العربية.

المعمارية زاها حديد: لا نهائية التمرد

في يوم 31 مارس 2016 توقف قلب واحدة من اكثر سيدات العالم تفردا، ماتت زاها حديد التي ولدت يوم 31 اكتوبر عام 1950. لم أكن اعتقد ابدا عندما بدأت التعرف على المعمارية الفقيدة، أعمالا وقراءة ثم حوارا، ان صفات التمرد والكفاح والنضال بمستوياتها العميقة والأصيلة يمكن ان ترتبط بمعماري معني بالتصميم والبناء. ماتت الفضولية مدمنة التمرد، دائمة التفكير، عاشقة التغيير. تميزت زاها بما يمكن ان نطلق عليه استدامة الشخصية النضالية. حقا فمشروعها النضالي لم ينحصر في فترة تعلمها او سنوات ممارستها الاولى، ولكنها حولت حياتها الى مشروع نضالي جدلي مستمر يحفزها ويحفز كل من حولها وكل من يتعامل مع اعمالها وفراغاتها ومشروعاتها. لقد ادركت زاها قيمة النضال في

رحلتها منذ ميلادها وحتى وفاتها. هذه الرحلة النضالية ولحظاتها الفارقة منذ سنوات التعلم الاولى في بغداد الخمسينيات، الى سنوات تكوينها وكفاحها للتحول من معمارية امرأة وحيدة مرفوضة إلى قيمة خالدة على الصعيد الانساني والنسوي والمعماري والابداعي. كانت زاها طفلة لا يتعدى عمرها السادسة ولكن والديها، المحبين للعمارة دون ان تكون مهنتهم، اصطحباها إلى المعرض الخاص بأهم معماريين القرن العشرين. انبهرت زاها بالرسومات والألوان والتكوينات والأشكال، وكان هذا اول لقاء في وعيها ولا وعيها مع العمارة والمعماري. ومضة اخرى فارقة في طفولة زاها ترتبط بعلاقتها الفريدة بالسياق الطبيعي لواحدة من اجمل المناطق العراقية وهي الاهوار في جنوب البلاد التي اعتادت السفر اليها مع عائلتها. فالمنطقة بها خاصية التفتت اليها زاها في سنوات طفولتها ومراهقتها وهي التفاعل بين الطبيعي والانساني، فهذه المنطقة مبهرة بطبيعتها. وقد اعترفت زاها حديد في حواراتها وكتاباتها ان هذا العنصر المستوحى من الطبيعة وتمازجها مع العالم الحضري، ينسحب على اعمالها، حيث تحاول دائما تكثيف تلك الانسيابية في سياق حضري عصري.

نضال الهوية العربية

"نعم اشتاق إلى بغداد" زاها حديد

جانب فارق في نضال زاها حديد يرتبط بتخلصها المتعمد من فخ "انا عربية" وبالتالي انا منغمسة في التاريخ وملتحفة بالتراث ومقيدة بالتقاليد وعاجزة عن الاستكشاف والتجريب. نعم احبت بغداد واحترمت السياق ولكنها تذكرنا دائما بانها عربية لكنها لم تتربى وتنشأ بالمفهوم العربي التقليدي وتلقيت تربية حداثية في العراق. كما انها منذ خروجها من بغداد للدراسة الجامعية، لم تقيم مطلقا في العالم العربي وانما اقامت في لندن بينما اكتسبت مواجهات ثقافية من تحركها الدائم حول العالم. ومن هذا المنطلق، وصفت نفسها قائلة "أنا لست النمط العربي المتعارف عليه".

والى جانب تفاعلها الاكاديمي الفكري مع معلميها في منظمة العمارة في لندن، فان زاها حديد تأثرت تأثرا كبيرا بأعمال المعماري أوسكار نيماييير، وخاصة احساسه الانسيابي بالكتل والفراغات. وتلك الاعمال الهمتها وشجعتها على ان تبدع اسلوبها الخاص مقتدية ببحثه على الانسيابية في كل مشروعاته ومبانيه. وكان فوزها في مسابقة مشروع نادي القمة الخاص على تلال كولون المطلة على هونغ كونغ عام 1982، البوابة التي فتحت امامها مجالا ليتساءل العالم ونقاد العمارة والأكاديميين عن هذه المبدعة المتمردة الرافضة ولكنها ايضا الفائزة. وهو المشروع الذي اصبغ عليها لقب المعمارية التفكيكية. لقد توقف نقاد العمارة امام لوحاتها المرسومة للمشروع التي تتفاعل فيها الطبوغرافية التي اعادت صياغتها مع العناصر المتعددة المنشقة من التكوين والتي خضعت لقوة من اللا

اتزان انتجت شظايا وقشور وفراغات وتجاب ثلاثية الابعاد غير مسبوقة. ولكن الواقع ان جزء كبير من مشروع زاها النضالي كان في مواجهة الاتهام المتكرر بانها معمارية ورقية اعمالها تنشر ولا تبنى. هذا الاتهام الذي يسبب الالم العميق لكل مبدع في مجال البيئة المبنية لأنه يلمح الى عدم جدواه ومحدودية ابداعه وتأثيره. ولكن زاها تحدت كل المنتمين الى حقبات معرفية وتقنية متقادمة، وجعلت افكارها تتجسد شيئا فشيئا. كما أخضعت تقنيات العصر في صالح مشروعها الابداعي، فأنتجت مباني توقف الجميع يتأمل المنطق المتجاوز لفكرها الانشائي والبنائي والمادي الفيزيقي.

تحولات البنية الجيومترية لابداعاتها

تتعدد مستويات التمرد لدى هذه المعمارية الفارقة، بل انها تتمرد على مدخلها ومفاهيمها لصياغة المكان. نتأمل هنا تحولها التدريجي من البنية الجيومترية التفكيكية التي ارتكزت فيها على انبهارها بالفلسفة التفكيكية واطروحات جاك دريدا وتفاعل معماريون من امثال برنارد تشومي وبيتر ايزنمان وريم كولهاس معها. تجاوزت زاها حديد هذه البنية وتقدمت الى فهم جديد للعلاقة بي الطبيعة وبين الصياغة الفراغية المعمارية والعمرانية تعتمد على صياغة جيومترية طبيبعية ديناميكية عفوية بحرية نباتية موحية نابضة بالحياة. من خلال تعقيد فريد وإبداع رائع، قادت زاها حديد مكتبها التصميمي لخلق تحولات جذرية وعميقة في المشروعات الثقافية والادارية والسكنية. والتزمت هذه المؤسسة التصميمية

الفريدة بمبادئ وقيم مستمرة مثل السيولة الفراغية والابتكار والأصالة والتطور العضوي.

نضال المساهمة الفارقة النوعية

كانت زها حديد عبقرية خلاقة بدون مثيل معاصر، كما أنها أسرت مخيلة محترفي التصميم والجمهور على حد سواء بتحدي كل الحدود في العمارة والعمران والتصميم والبناء والتشييد. في وقت وفاتها الغير متوقع، كانت حديد قد رسخت نفسها بين النخبة من معماريين العالم. لقد تحولت زاها حديد من اعمالها الاولى المتأثرة بالمدرسة التفكيكية وما انتجته من مباني ذات زاويا حادة إلى بنية أكثر مرونة فيما بعد. بل أن الأرضيات والأسقف والجدران والأثاث اصبحت تتألف وتتلاقى لتكون أجزاء متداخلة بعضوية فريدة في التصميم العام. ان زاها حديد حالة نموذجية لكفاح ونضال المبدع من اجل كسر القواعد القديمة وصياغة كونها المعماري الخاص .

وتستمر رحلة النضال لتتوج عام 2004 بالتقدير العالمي حيث حصلت على "جائزة برتزكير في العمارة" 'Pritzker Prize' لتكون اول امرأة ومن اصغر من حصل عليها على مدار تاريخ الجائزة. واقيم الاحتفال بمنحها الجائزة في متحف التراث في "سان بطرسبرج" في روسيا. ولكن الجملة الدالة كانت في تقرير لجنة تحكيم الجائزة حيث أقرت "أن الطريق الذي خاضته "زاها"

للحصول على الاعتراف الدولي، كان "كفاحا بطوليا". كما حصلت على الميدالية الذهبية للمعهد الملكي للمعماريين البريطانيين. تحولت زاها حديد بنضالها وتفانيها واخلاصها لمشروعها الابداعي الى المعمارية الاولى في العالم بعد ان كان نقادها يتهمونها بانها معمارية ورقية تجريبية. وانتشرت بصمتها الابداعية عبر كل قارات العالم ومدنه الكبرى من أقاصي الصين مروراً بأروبا وبلدان الشرق الأوسط، والعديد من المدن الأمريكية. بل واصبحت مبانيها وحتى بصرف النظر عن وظيفتها هي ‘‘أيقونة’’ التي تفتخر كل مدينة بأن نسيجها اتسع ليشمل احدى مساهمات زاها حديد الفارقة.

خلود المعمارية الحديدية الزاهية

ماتت زاها حديد ولذلك يجب ان تطفأ الانوار لان وجودها على الساحة المعمارية والاكاديمية والفكرية كان نورا وتنويرا. حتى في الشرق الاوسط اطفئت الانوار، فقد أطفأت دولة الإمارات جسر الشيخ زايد الذي صممته الفقيدة في أبوظبي. ولكن خلود زاها حديد يمكن ان يفعل ارتباطها بالشرق والعرب والعراق من خلال التعويض عن اهمالها لسنوات طويلة والتوجه نحو احياء قيمتها من خلال برامج وجوائز باسمها في مدارس العمارة والعمران في العالم العربي. رحم الله المبدعة لا نهائية التمرد بنت العراق وبنت العالم.

قطر والعبودية والمتحف الشجاع

لم تَعد المتاحف في عالم القرن الواحد والعشرين أماكن لعرض مقتنيات تاريخية أو إبداعات فنية فقط، ولكنها أصبحت فضاءات عامة ديمقراطية تحفز الحوار والتعلم والتساؤل والاندماج. وما أحوجنا في عالمنا العربي المعاصر لكل الفضاءات التي تجعلنا مفكرين متأملين متحاورين متسائلين ناقدين. في العقد الأخير تبارت معظم المدن الخليجية في إضافة نسقاً بنائياً جديداً إلى نسيجها العمراني وهو المتاحف ذات المقتنيات الفريدة والقَيمة والسمعة العالمية. وقد استدعت هذه المدن، مسلحة بفوائد من عوائد النفط، نجوم العمارة العالمية لتحقيق هذه التصورات في نسيجها. جاء المعماريون النجوم ومنهم جون نوفيل وأي أم

باي وفرانك جيري والراحلة زاها حديد وصمموا وبنوا مجموعة غير مسبوقة من المتاحف في عواصم دول الخليج.

الجدير بالذكر ان وسط هذه الحالة من الانبهار بهذه التصميمات وما بني منها، اجدني اتوقف امام متحفاً شديد التواضع ولكنه من وجهة نظري متحفاً شجاعاً فارقاً في مقياسه ومحتواه ورسالته ورمزيته، والأكثر أهمية في فلسفة تأسيسيه في السياق الخليجي العربي الاسلامي. قصة المتحف الشجاع جديرة بالتوثيق والتحليل لأنها تتعامل مع سيناريو غير مسبوق في الشرق الأوسط عامة والسياق الخليجي المتحفظ خاصة.

هذا المتحف هو متحف الرق أو العبودية والذي يشغل منزلا تقليديا تراثياً أُعيد تأهيله وترميمه وتصميم فضاءاته الداخلية ليسرد قصة الرق والعبودية في قطر والخليج والعالم. نعم، أقدر اندهاشكم فمن يملك الجرأة ليسرد قصة وجود الرق حتى منتصف القرن العشرين في سياق الدول الخليجية المسلمة؟ بل أن هذا المتحف الشجاع يمثل حالة فريدة حتى على مستوى العالم. يقع المتحف في الركن الشرقي من مشروع مشيرب "قلب الدوحة"، وهو المشروع الذي أعاد الحياة لقلب مدينة الدوحة القديمة الذي أُهمل في العقود الماضية بعد هجرة الأهل بعد طفرة النفط وعوائده السخية سعياً وراء نماذج عالمية للحياة على اطراف الدوحة. وبصورة محددة فإن موقع المتحف في قلب المربع الثقافي داخل مشيرب الذي يضم مجموعة من المتاحف تشغل جميعها بيوتاً تقليدية أثرية أشرفت على

ترميمها وإعادة إستخدامها هيئة المتاحف القطرية. والمتاحف صممت ليكون لها تواصل بصري وحركي مع سوق واقف التراثي وفضاءاته العامة المفعمة بالحياة.

البيت التقليدي الأثري الذي تحول إلى متحف كان يسكنه تاجر لقبه "الجلمود" لقسوته وصلابته، وكانت تجارته تشمل الرقيق وورد أسمه في وثيقة عتق مؤرخة في ديسمبر 1942 تبعا للوثائق البريطانية. هذا البيت، وفقط من أقل من قرن كان مكاناً لتخزين البضاعة البشرية من نساء وأطفال ورجال مقيدين بالسلاسل الحديدية ينتظرون مصيرهم ومالكهم الجديد. تبدأ الرحلة في فضاءات المتحف الشجاع من خلال مجموعة من القاعات الملتفة حول الفناء الداخلي، حيث تبدأ من رؤية المتحف والتأكيد على اهمية قراءة كل فصول التاريخ وتوثيقها حتى ما يثير الخجل حتى نواجه المستقبل بصورة أفضل ونتحاور بمنطق لا يشوبه الخوف. ثم تتوالى القاعات حيث تخصص التالية لسرد قصة الرق في العالم ثم في منطقة المحيط الهندي ثم الرق في قطر وتختم بطرح متعمق عن مفاهيم الرق المعاصر وفعالية تشاركية تمكن الزوار من الانضمام الى نداء محاربه الرق في العالم وبكل صوره. والمتحف الشجاع يستخدم كل تقنيات العرض من اللوحات والوثائق والمواد الارشيفية والصور الفوتوغرافية والمقتنيات المادية والخرائط وافلام الفيديو واللوحات التفاعلية.

وعلى الرغم من حساسية الموضوع والتوجهات السابقة في السياق العربي والاسلامي لتجاهله، ولكن الحرص كان أكثر على إدراك وتفهم حقائق تاريخية للرق في الخليج وقطر وتعزيز الحوار حول هذه القضية التي يتجنبها الكثيرون في السياق الاسلامي الشرق اوسطي. يعلمنا المتحف أن الرق نظام بغيض يفصل البشر عن عائلاتهم بصور متعددة منها الخطف أو الآسر أو العقاب على جرائم، بل ودفعاً للديون. ويوثق المتحف أن قطر وكل منطقة الخليج كانت جزء من منظومة الرق المزدهرة في سياق المحيط الهندي. كما يوضح المتحف ازدهار الرق في شبه الجزيرة العربية والجلب المستمر لهم من النوبة في مصر أو الحبشة وباقي افريقيا وايضا نطاقات جغرافية متعددة. كما يوثق أن بعض الأسر الفقيرة إعتادت بيع أبنائها. كما يلفت المتحف النظر الى سير عبيد أصبح لهم قيمة كبرى بعد تحريرهم مثل حالة عنتر بن شداد أو بلال بن رباح مؤذن الرسول.

يوضح المتحف موقف الإسلام وتأثير ظهوره على عملية الرق، حيث نظمها وحصرها على الأسر في الحروب والميلاد في الرق والشراء. ثم جاءت مراحل من التشجيع على تحرير الرقيق مع الحرص الكامل على الإحسان لهم وحسن معاملتهم. مستوى مصداقية التوثيق، على الرغم من حساسية الموضوع، تبهر الزائر، فلا يوجد حرج في الاعتراف بان قصر الخليفة العباسي "المكتفي بالله" مثلا ضم عشرة الالاف من الرقيق. فعلى الرغم من تعاليم الإسلام فقد أستمر إقتناء الرقيق أحد أهم علامات الثراء. وفي هذا السياق يستوقفك الصور

الفوتوغرافية للرقيق في مكة المكرمة بعد الاسلام والتي التقطها كريستيان سنوك ونشرت عام 1888.

وتصل دراما المتحف الشجاع إلى أقصاها وهو يخصص خمس قاعات لسياق قطر والرقيق في العقود الأولى من القرن العشرين والأماكن التي قدموا منها واساليب نقلهم واستجلابهم وأسعارهم ثم أعمالهم وحياتهم اليومية. لقد حرَّمت قطر العبودية في منتصف القرن العشرين وبالتحديد عام 1952، عندما أصدر حاكمها الشيخ على بن حمد بن عبد الله آل ثاني، قانوناً يحرم إقتناء العبيد. فتحول العبيد إلى أحرار واندمجوا في المجتمع. وفي عام 1961 وقبل عشر سنوات من الاستقلال عام 1971، كانت قطر أول دولة خليجية توطن المحررين من الرق، واصبح من حقهم أن يصيروا مواطنين.

ثم يؤلمك المتحف الشجاع في جزئه الاخير، وهو يوثق ان في لحظتنا المعاصرة هناك اكثر من اثنين ونصف مليون شخص ضحايا الاتجار بالبشر منهم مليون طفل، وان من بين 190 دولة في العالم، هناك 161 دولة تلعب دورا في الاتجار بالبشر مصدرة لهم أو وجهة عبور أو مستقبلة للضحايا. وان العبودية الحديثة كقصص العمال في مصانع بنجلاديش او العمالة في الخليج او الاتجار بالجنس كلها ممارسات يجب ان تتوقف فوراً وللأبد. وعندما تقترب نهاية الرحلة في

المتحف الشجاع تتبلور أمام الزائر الجهود الحالية التي تبذلها دولة قطر على السياق الاقليمي والعالمي ومساهماتها المتصاعدة لإنهاء الاتجار بالبشر تماما.
الحافز الاكبر لي لكتابة هذا المقال هو النهاية البديعة الملهمة لجولتي في المتحف حيث دعيت للمشاركة في برنامج تفاعلي تعهدت فيه مع من سبقوني من اشخاص زاروا المتحف من كل أنحاء العالم، بأن نساهم في توعية الآخرين عن قسوة الإتجار بالبشر بكل صوره وحتمية إبادته من سياقنا الإنساني المعاصر.

شكراً لكل من ملك الشجاعة والجرأة ليقدم لأهل قطر والخليج والعرب وكل العالم هذا المتحف الشجاع الذي يتحدى مفاهيم التوثيق التاريخي والتراثي والانساني في السياق الخليجي والعربي والاسلامي.

مواطنو الخوف والمدن المنكسرة الممزقة

في السنوات الست الماضية، لم تمثل اي من مكونات المدينة العربية قيمة فارقة كما فعلت الفضاءات العامة. فقد كانت تلك الميادين الوعاء الذي احتض الشباب ثم باقي افراد المجتمع في تعبيرهم الجماعي عن الرفض. هذا الرفض الذي تم تكثيفه في جنبات الفضاءات العامة حتى تحول الى ثورات كاسحة اسقطت انظمة تجاوز تمسكها بمقاليد الحكم عدة عقود. قاومت هذه الانظمة الاطروحات الثورية مقاومة شرسة، وكان العنف في الميدان شعارا لحقبة سوداء في تاريخ المجتمعات وفي سردية المدينة العربية. كيف تبلورت ظاهرة العنف العمراني في المدينة العربية من خلال ميادين هامة؟ وهل تحولت المدن العربية من مدن ثائرة الى مدن منكسرة ممزقة يتجول بها مواطنون خائفون خاضعون؟

أن الثورات هي تسونامي التغيير وهي التحولات العميقة والعنيفة الناتجة عن الإفراج المفاجئ للطاقات البشرية التي تخلق موجات المد الزلزالي المطالب بالتغيير. هذه الموجات التي تغمر القوى السياسية السائدة والهياكل التنظيمية، وتستبدلها في فترة قصيرة نسبيا من الزمن مما تسبب في الاصطدام الناتج عن المقاومة الشديدة للتغيير. ولذلك فان هذه التحولات العميقة المفاجئة يكون من المستحيل التنبؤ بها. ولكن هذا لا يتناقض مع حتمية حدوثها مهما تأخر الوقت بسبب المظاهر التي تتراكم واهمها فقد الأمل، وسيطرة الظلم، وانعدام الحرية. بتسليط الضوء على البعد المكاني في المنظومة الثورية، نكتشف ان الثورة لم تتبلور فقط في فضاءات محددة من المدينة مثل الميادين، ولكن الواقع يوضح التجسيد الفراغي للظلم الاجتماعي واللامبالاة العمرانية التي كانت ملمحا اساسيا من انظمة تقود المجتمعات العربية. ولذلك، نلمح كيف ترتبط الثورة ارتباطاً مباشرا بالسياسات المكانية والممارسات العمرانية التي كانت احيانا ظالمة وعنيفة تجاه المجتمعات المحلية المسحوقة.

إن التحول الذي يشهده العالم ترافقه مظاهر ديناميكية تتمثل بالنمو السكاني، والتحضر المتنامي، وتأثيرات العولمة وانتشار التكنولوجيا الرقمية. والواقع إن تفاعل هذه الظواهر يؤثر على أمن أكثر من سبعة بلايين بشر هم سكان عالمنا الحالي. وعلى المستوى العمراني، تشكل المدينة مسرحا لهذا الصراع وهي المكان الأكثر تحدياً للأمن الإنساني. إن العنف في المناطق العمرانية وفقدان الأمن وعدم الإحساس به، يؤثر بدون شك على نوعية وطبيعة الحياة في عالمنا

الحالي التي أدت إلى التفكك الاجتماعي والمكاني داخل المدينة. إن الأمن هو أحد متطلبات الحياة التي تساهم في إعلاء نوعية العيش فيها. ومن الموثق أن للبيئة المحيطة تأثيرا في تشكيل شخصية الفرد وسلوكه وأنماط المعيشة، إضافة للظروف المكانية التي هي من أهم المؤثرات الخارجية في تشكيل شخصية الإنسان، سواءً من تأثيرات إيجابية كالتطور ، أو سلبية كالعنف العمراني. ومن أبرز مظاهر العنف العمراني السلوك البشري الذي ينتهجه بعض السكان وينتج عنه عنفا عمرانيا يشوّه البيئة المبنية في المدينة ويقلل من رصيد نوعية الحياة المتميزة.

تبرز ظاهرة الظلم العمراني في رسمية العنف حين تتبنى الدولة، وبحجج التطوير مثلاً، ازالة احياء يفوق عدد سكانها تعداد دول كاملة. تبرز حالة القاهرة التي قدرت الدراسات ان عدد من سيتم اخلائهم لتنفيذ بعض المخططات يتجاوز الاربعة مليون نسمة. كما كشفت تداعيات الربيع العربي وخاصة في الفضاءات العامة، موقف النخبة من ظاهرة العنف بأنواعه ومنها العمراني. لقد تبلور موقف المواطن الاناني والمستفيد من الانظمة الديكتاتورية التي جعلته يقبل العنف وامتهان الانسانية وخنق الحياة العامة في سبيل ان تستمر مصالحه ومكتسباته. كما تبين عمق العلاقة بين الثورة والظلم العمراني والعنف العمراني. وخاصة من جانب الظلم العمراني فقد مكنت الثورة العديد من القطاعات على محاولة رد هذا

الظلم باستخدام اساليب قد توصف بالعشوائية الفوضوية ولكنها كانت مبدعة خلاقة.

كان الفضاء العام في المدينة العربية هو المكان الذي انطلقت منه واحتضنت جنباته اهم ثورات هذا الربيع. الا ان الحكومات وبسبب الفواصل الزمنية ما بين الشرارة الاولى في تونس وانطلاقها الى مصر واليمن وسوريا تنبهت الى خطورة اللقاء بين المجتمع والفضاء العام. تأمل مع حدث في البحرين في قدرة النظام ليست فقط على محاصرة المجتمع والفضاء ولكن في ازالته وطمسه بالكامل من النسيج العمراني للمدينة كما حدث في حالة ميدان اللؤلؤ الذي ازيل بالكامل بعد فض اعتصام المتظاهرين. حتى النصب التذكاري التاريخي الذي اقيم بمناسبة اجتماع القمة الخليجية في المنامة عاصمة البحرين، تم تدميره وتسويته بالأرض في دقائق. كانت الحكومة في البحرين واعية تماما لان الفضاء العام هو طرف المعادلة الاصعب في منظومة الربيع العربي، وبالتالي اجهاض علاقة المجتمع بالفراغ العام هو ضمان جوهري لإطفاء جذوة الثورة.

لقد شهدت الكثير من المدن العربية مثل القاهرة ودمشق وطرابلس وتونس وصنعاء حدة الصراع من اجل فضاء للتعبير والثورة. وتدريجيا تحولت الميادين من مسارح الثورة الى مسارح العنف. ورُصد النضال من أجل السيطرة على الفضاءات العامة، والسعي إلى فهم أهميتها بالنسبة لظهور جمهور ثائرة. كان الميدان مساهما، ابان الربيع العربي، في صياغة مشهدية العنف لان ما حدث في

ميادين مدن الربيع العربي من عنف جسدي من قبل سلطات الانظمة المهددة لاقى انتشاراً غير مسبوق. لقد ساعدت الشبكة العنكبوتية التي تجعل التواصل الاجتماعي لحظي في انتقال متسارع للعديد من الصور الدالة التي خلقت وعيا مغايرا لكل ما حاولت الدولة واجهزتها وخاصة الاعلامية تسويقه ونشره للرأي العام وخاصة من خلال القنوات الرسمية. في مصر مثلا تتعدد حالات الصور الدالة التي احدثت دفقا ثوريا ومنها: صورة رش الثوار بمدافع المياه اثناء تأديتهم للصلاة على كوبري قصر النيل، صورة ضرب وتعرية فتاة محجبة سحب أو القاء الشهداء بجوار اكوام القمامة بمعرفة افراد الجيش.

لقد امتلكت الميادين اثناء الربيع العربي القدرة على احتواء تصنيفات مختلفة من العنف. رصدنا العنف الايجابي وفكرة النضال العنيف احيانا من اجل امتلاك الفضاء العام. وهو ما نبع من منطلق الفهم العميق لدوره في التأكيد على الاستمرارية الثورية الرافضة للنظام. كما تبلور العنف الناعم والمقاومة المبدعة في الميادين. فبنفس قدر ارتباط الفضاءات العامة في الاذهان بالعنف الصلب، الا ان ما حدث في حالات فضاءات مدن الربيع العربي يثير التساؤل. ان العنف الناعم كان ملمحا من ملامح صياغة الوجود الثوري في تلك الفضاءات. تبلور الرفض والاعتراض الناعم في معارض تشكيلية ولوحات كاريكاتورية ولافتات اعتراضية واغاني جماعية وحلقات اداء مسموع او مرئي لفنون تجريبية منطقها هو العنف الناعم والرفض الهادئ. لقد اكد استعمال الثوار للفضاءات العامة على

قدرة التعبير الفني والرمزي على الاحتجاج. ومن هنا تتبلور اسئلة محورية ابرزها: كيف يكثف العزل والخوف المجتمعي في الفضاءات العامة؟ كيف يساهم الفراغ العام الخالي من العنف والمستقبل للثائر والرافض في اعادة بناء مفهوم المواطنة وتأسيس اطارا اكثر عدالة للانتماء والتفاعل المجتمعي؟ هل نجح العنف في ترويض ثورة سياسية ثقافية حضرية؟ ام انه القى ضوء على دور الفراغات العامة في تأجيج الثورة واستمراريتها؟ هل هناك مكان لفضاءات ديمقراطية لا تعاقبك على فقرك ولا تحتفي بثرائك. وهي فراغات لا تنتقي، وتسمح للجميع بالتفاعل والتداخل والتعبير عن النفس وعن الجماعة الانسانية وترفض فقط مواطني الخوف.

المدينة والساحة والثورة: عن ليبتزج

مدينة ليبتزج الألمانية هي واحدة من اهم المدن التاريخية وكانت المدينة الأولى في ألمانيا الشرقية وتشتهر بجامعتها العريقة المسماة على اسم المدينة: جامعة ليبتزج. المدينة ايضا لها تاريخ طويل مع عمالقة الموسيقى والأدب وأهمهم باخ ومندلسون وجوته كما ولد بها الموسيقار الشهير ريتشارد فاجنر. هي مدينة التوليفة المثالية: التاريخ والثقافة والعمارة والادب والموسيقى معا في مدينة واحدة. تقع المدينة في شرقي وسط ألمانيا، وتعتبر مركزًا تجاريًا وصناعيًا وثقافيًا. وقد تطورت المدينة إلى مركز تجاري مزدهر خلال العصور الوسطى لأنها تقع عند ملتقى العديد من الطرق التجارية الأوروبية. كما اشتهرت عالميا بمعارضها التجارية الكبرى، وكانت أحد أعظم المراكز الأدبية والموسيقية في أوروبا. وقد دُمر ما يقرب من ربع مباني المدينة خلال الحرب العالمية الثانية

(1939- 1945م). وتعد المدينة مركزا لحياة ثقافية نشطة حيث توجد بها الكثير من المدارس والمعارض الفنية والمتاحف. ومن المراكز المعرفية في ليبتزج معهد للموسيقى الذي أسسه المؤلف الموسيقي فيليكس مندلسون عام 1843م، وكلية للفنون ومعهد للفنون التخطيطية وفنون الكتب. وكما وصفتها جريدة النيويورك تايمز فهذه المدينة هي الحديقة الخلفية للعبقري الموسيقي باخ. مدينة مفعمة بنفحات الإبداع والفن، وبها تنوع من الفضاءات المتحفية أهمها متحف الفنون الجميلة ومتحف الفنون التطبيقية ومتحف تاريخ المدينة وأكاديمية الفنون البصرية ومتحف الآلات الموسيقية. ومن أجمل القيم الثقافية بالمدينة بيوت مبدعيها ومنهج الحفاظ عليها. تشعر بالموسيقى في كل مكان فهي جزء عميق في نسيج شخصية المدينة. الموسيقى في الشوارع والميادين والجامعة والكنائس والمطاعم. المدينة هي مكان ملهم ولد وابدع فيه مئات المؤلفين والموسيقيين.

ساحة التغيير للمدينة والدولة والعالم

اندهشت عندما وصلت إلى بهو فندقي في قلب المدينة حينما داعبتني موظفة الاستقبال قائلة انت بالقطع محظوظ، فحجرتك هي الوحيدة الباقية من الحجرات التي تتمتع بمنظر مباشر على الكنيسة والساحة اللتان غيرتا العالم. "تغيير العالم من هنا"، الجملة اذهلتني. فتحت بلهفة ستائر نافذة الحجرة العريضة الممتدة بطول الحائط لأرى كنيسة صغيرة الحجم على حدودها ساحة للمشاة ذات مقياس انساني دافئ لم يمنع المطر المتساقط ولا درجة الحرارة التي انزلقت الى -5 تحت الصفر، من امتلاءها بالحركة من كل الاعمار والالوان. الساحة ذات حدود

معمارية واضحة من مجموعة من المباني التاريخية وتلتف المباني حول الساحة المستطيلة لتكوين فراغ عمراني له عبق تاريخي رصين بينما ترتكز الكنيسة بأبراجها على ركن الفراغ مكونة منظومة بصرية ثرية. فضولي لم يسمح لي بمجرد التفكير في دقائق من الراحة بعد رحلة طويلة ونزلت اخطو خطواتي الاولى في الساحة ومازالت كلمات فتاة الاستقبال تتردد في عقلي: "الساحة التي غيرت العالم".

قصة تغيير المانيا واوروبا والعالم مثلها مثل ثورات الربيع العربي كان لها ايضا بداية بسيطة وغير متوقعة. فقد دعت مجموعة من الشباب الرافضين للمناخ السياسي الاستبدادي الديكتاتوري في المانيا الشرقية الى اجتماع لمناقشة مصير امتهم. شباب كان يرفض استمرار التعذيب والموت والاعتقال اللانهائي لكل من تسول له نفسه ان يعترض او يتمرد. كان بناء سور برلين الذي فصل شطري المانيا فصلا جغرافيا هو الجريمة الاكبر لان الفصل بالواقع كان عاطفيا وانسانيا حيث مزقت العائلات وقطعت الاوصال. لم تتحمل الجماعة الشابة الثائرة في مدينة ليبتزج المزيد من هذا القهر، ودعت الى اجتماع بهدف توحيد الصفوف وبدء مشروع متماسك للمعارضة، ولأهمية مركزية المكان وقع اختيارهم على كنيسة القديس نيكولاس ليكون مقرا للاجتماع.

عندما حانت ساعة اللقاء لم يكن اكثر المتفائلين يتوقع اكثر من بضعة مئات، فكيف يتدفق الشباب الى مكان يعلمون جيدا كيف يتعامل وحوش البوليس السري والعلني مع التجمعات المعارضة. يعلمون ايضا وجود كاميرات المراقبة على كل المباني العامة والساحات التي تحذر قيادات البوليس فتعطي الاوامر بالمهاجمة والاعتقال الوحشي في دقائق. المذهل مع كل هذا انه في خلال ساعات كانت الكنيسة كاملة العدد يتجاوز من فيها الالف شاب وشابة. وكانت المفاجأة الاكبر للمنظمين عندما ادركوا ان الضوضاء القادمة من الخارج ليست حشود قوات البوليس ولكنها عشرات الالاف من الشباب الالماني الثائر، وخاصة طلبة جامعة ليبتزج يملؤون الساحة بهتافاتهم حاملين الشعارات والمطالب التي كتبت بعجل وبخط اليد. الكنيسة اصبحت رمزا وطنيا في كل المانيا منذ احتضانها لما عرف باسم "مظاهرات الاثنين"، تلك المظاهرات التي انطلقت من الكنيسة التي اصبحت المركز للمقاومة السلمية ضد الحكم الشيوعي المستبد. التجول في الساحة الصغيرة انسانية المقياس يشعرك بالاتساع والرحبة وانت تستدعي الاحداث امام عينيك وتبلغ قمة الرمزية في لوحة نحاسية مثبتة على الارض الحجرية وقد طبع عليها اثار اقدام كبيرة وصغيرة، طفولية وبالغة، رجالية ونسائية، وكأن المغزى ان تصل اليك كزائر رسالة واضحة: نعم هذه ثورتنا وكلنا شاركنا فيها. وعندما وصلت فورة التفاعل في الكنيسة والساحة الى اقصاها قرر المنظمون التحرك من ساحة كنيسة القديس نيكولاس الى ساحة اغوستس ، الساحة الرئيسية بالمدينة والتي تطل عليها جامعة ليبتزج.

متحف الثورة

ملتقى التاريخ المعاصر في المدينة هو مكان للذكريات الحية. ومعرض وعرض توثيقي ومركز معلومات مخصص لتاريخ تقسيم ألمانيا ثم استعادتها لوحدتها. ويطرح توثيق لمفاهيم الديكتاتورية وفكرة المقاومة وخاصة في ألمانيا الشرقية. كما يوثق الملتقي النظام القمعي الذي أدى إلى عصيان مدني وثورة سلمية عام 1989. في المسافة الواقعة من ساحة كنيسة القديس نيكولاس إلى ساحة اغوستس يقع متحف الثورة وهو سلسلة من الفراغات المتصلة التي اعد لها سيناريو متحفي مثير يحكي قصة الثورة من لحظة ميلادها في 4 سبتمبر 1989 داخل الكنيسة الى اللحظة التاريخية التي مهدت لحقبة جديدة في تاريخ البشرية، وهي سقوط حائط برلين وعجز الشرطة الالمانية عن ايقاف سيل المواطنين المندفعين الى الشطر الغربي لمدينة برلين تنفسا للحرية واقترابا من اقارب واصدقاء فرقتهم الاحجار العالية والاسلاك الشائكة التي مزقت اجساد بعض ممن تجرء بمحاولة العبور سابقا.

صيانة التاريخ وصياغة المستقبل في ليبتزج

بعد هدم سور برلين الفاصل عام 1989 وتوحد شطري المانيا عام 1990، تدفقت الموارد المالية من الشطر الغربي الغني لمساعدة الشطر الشرقي الذي عانى لعقود طويلة. ومثلت مدينة ليبزج واحدة من أهم قنوات صياغة مستقبل جديد اعتمد على صيانة التاريخ والحفاظ على مقوماته. فالمدينة التي تشتهر بقيمتها

السياسية والاقتصادية والثقافية يجب ان تتطور دون ان تفقد هذه القيم التي لا تعوض والتي تشكل الملمح الرئيسي لشخصيتها. ومن هذا المنطلق تم صياغة برنامج لإعادة احياء المدينة يحافظ على رصيدها المعماري والعمراني، وفي الوقت ذاته يطور جامعتها ومراكزها البحثية والعلمية. منذ الوحدة عام 1990 وحتى الان اطار زمني بلغ فقط 25 عاما ولكن وضح الرؤية ووجود الرغبة يذلل كل الصعاب. فبالفعل في تلك الفترة الزمنية المحدودة اعيد بناء وترميم واعادة تأهيل كل المباني التاريخية بالمدينة وتم احياء القلب التاريخي لها وخاصة منطقة كنيسة القديس نيكولاس وساحتها وما حولها لتتحول جميعها الى منطقة للمشاة تتنوع الانشطة فيها بين التجاري والترفيهي والثقافي والفني ، وتذكر الجميع بانها المدينة والساحة وقلوب وعقول الشباب الذي غير العالم.

عبد الوهاب المسيري، المفكر المعماري والعمراني

عُرف عبد الوهاب المسيري المفكر العربي بأطروحاته العميقة في مجال التحليل الشمولي للمشروع الصهيوني، فقد صدرت له عشرات الدراسات عن الحركة الصهيونية ويعتبر واحدًا من أبرز المفكرين العالميين في هذا المجال. في هذا المقال سأحاول اسقاط الضوء على جانب شديد القيمة، ولكنه غير معروف من حياة هذا المفكر الوطني. هذا الجانب يسرد علاقة المفكر الموسوعي بالعمارة والعمران وقدرته على طرح اطارا فكريا وتوجها معرفيا قادر على إلهام اجيال حالية وقادمة من المعماريين والعمرانيين العرب. خلال بحثي اكتشفت جانباً جديداً أو بالأحرى هدفاً جديداً للمشروع الثقافي للمسيري، وهو الخاص بمفهوم إنتاج المكان ومنطق تولد العلاقات الإنسانية التي تنسج وتتشابك خلاله.

بدأت رحلتي الفكرية كمعماري وعمراني مع النتاج المنشور للمسيري من خلال استقراء قيمة العملية الابداعية، وقيمة الانسان في اللحظة المعاصرة التي يسيطر عليها الغرب ويدفعنا دفعا الى الانحياز الشديد له ولما ينتجه. ولمزيد من التحديد للقيمة الفكرية المعرفية للمسيري أستعرض ثلاث من أعماله التي لا تثري فقط الحركة الفكرية النقدية الفلسفية بعمومها، ولكنها بالقطع طارحة لحقبة جديدة في مفاهيم تشكيل هوية المكان وعلاقته بالإنسان العربي الفخور بتاريخه والواعي لحاضره. هذه المفاهيم يمكن رصدها في ثلاث من كتب المسيري الفارقة:

المحطة الاولي: إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد (1993)
طرحت فكرة التحيز في المصطلح والمنهج من جانب الكثير من الباحثين والعلماء وهذه الفكرة نوقشت من قبل في سياق الحديث عن الهوية والخصوصية. إلا أن أحدًا لم يحاول بشكل منهجي وشامل دراسة قضية التحيز في العلوم وتأسيس علوم جديدة تتعامل مع الإشكاليات الخاصة بالحضارة الإسلامية المعاصرة. ويعد هذا الكتاب محاولة مُفصلة ومُنظمة في هذا الصدد تسعى لاسترجاع البُعد الاجتهادي والإبداعي للمعرفة. إذا أسقطنا هذا الفكر على العمارة نشعر بأهمية طرح المسيري لأن العمارة العربية وقعت بعمق في فخ التقليد وأهملت المشروع النقدي للنتاج المعماري والعمراني الغربي.

المحطة الثانية: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان (2002)

تشكل الفلسفة المادية البنية الفكرية التحتية أو النموذج المعرفي الكامن للعديد من الفلسفات الحديثة: الماركسية والبرجماتية والداروينية، كما أنها تشكّل الإطار المرجعي الكامن لرؤيتنا للتاريخ والتقدم وللعلاقات الدولية. وقد ارتبطت الفلسفة المادية في عقول الكثيرين بالعقلانية والتقدم والتسامح. وقد هيمنت هذه الفلسفة على النخب الثقافية والفكرية لزمن ليس بقصير.هذا الكتاب قدم نظرية نقدية لهذه الفلسفة، فحلل نموذجها المعرفي المادي، ودرس تجلياته النظرية والتاريخية المختلفة. فقدم توضيحاً لماهية الفلسفة المادية وسرّ جاذبيتها، ثم بين مواطن قصورها في تفسير ظاهرة الإنسان. وانطلاقاً من هذا التصور حصرت هذه الدراسة أهمّ سمات العقل المادي، كما أوضحت الفرق بين العقل الآداتي والعقل النقدي.

المحطة الثالثة: الإنسان والحضارة (2002)

تتناول دراسات هذا الكتاب إشكالية منهجية وهى ضرورة استخدام النماذج المركبة لتفسير الظواهر الإنسانية والنماذج المركبة هي النماذج التي لا تكتفي بعنصر واحد في تفسير الظواهر وإنما تأخذ في الاعتبار عناصر عدة منها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، بل تصل إلى العناصر الحضارية والأبعاد المعرفية ولأن النموذج التحليلي المركب متعدد الأبعاد والمستويات فإنه يمكنه الإحاطة بمعظم جوانب الظاهرة موضع الدراسة. وإذا حللنا من خلال أطروحة الكتاب، المفهوم العميق للعمارة يتبن لنا مستوي الوعي الذي حققه المسيري

للمعماريين والعمرانيين. فالعمارة هي نتاج مادي ولكنه شديد التعقيد والتركيب ومحمل بالصفات والعلاقات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية بالإضافة الى القيم الجمالية والتشكيلية. في إطار مثل هذا الفهم فان العمارة وهي مرآة للحضارة الإنسانية تتطلب نموذجا مركبا لتفسيرها وفهمها. هذا المنظور لم يكن مطروحا في الثقافة العربية التي طالما نظرت للعمارة كمنتج بنائي جمالي تقني هندسي ولكنه ليس بالقطع منتج حضاري عميق محمل بالإشارات والدلالات.

هذه الكتب الثلاث تشترك في مفهوم شمولي عام، كان البحث عنه يؤرق اجيال من المعماريين والعمرانيين في العالم العربي. هذا المفهوم يؤكد على الخصوصية الانسانية والمكانية والثقافية واهميتها في فهم وتفسير الطواهر والنماذج الانسانية المركبة والمعقدة. هذه المفهوم ايضا ينقل المبدع، وخاصة في مجال العمارة والعمران، من حالة الاستسلام الى ما هو وارد اليه او التحيز له او ضده الى حالة الفاحص الناقد الواثق في ما يملكه محليا واقليميا، ومن ثم يجعل مراجعته للطرح الغربي مشروعا ومقبولا.

المسيري والعمارة: علاقة المحب والناقد والمنظر

تميز فهم المسيري عن الفن والعمارة والعمران بانه فهما اجتماعيا ثقافيا وليس فقط تشكيلي جمالي، وقد بدأ هذا التوجه الاجتماعي الانساني من سنوات المراهقة. ومن ثم تجاوز فكرة ان العمارة فن اجتماعي وطورها الى ان العمارة

هي تعبير اجتماعي عن الوجود، ومن ثم فان التصميم للصفوة فقط لا يتنافى مع المفهوم الحقيقي للعمارة، وانما يخلق فجوة اجتماعية وسقطة في بنية المدينة عندما تنتشر حولها عمارة المهمشين المرفوضين الذي فشل المعماريون والعمرانيون في التعامل مع قضاياهم ومتطلباتهم فخلقوا حزاما قبيحا ينمو سرطانيا ويخنق المدن الكبرى في مصر وخاصة القاهرة والاسكندرية. **كما** انشغل المسيري بإنهاء الخلاف المصطنع احيانا بين الحديث والقديم او الاصلي والمعاصر، وبصورة خاصة اوضح خطورة الانحياز الكامل الى ذوق غربي في العمارة والفن. اعطي المسيري نصائح لكيفية ادماج فنون المجتمعات الإسلامية في العمارة الداخلية لبيوتنا واماكن عملنا خاصة مع الأثاث البسيط، واشار الى اهمية خلق حدائق صغرى حتى في غرف الاستقبال حيث يمكن تزيينها بأواني الزرع النحاسية المطروقة بالزخارف الهندسية او الخطية، وتزيين الجدران بالخط العربي في لوحة قرآنية أو تشكيلية توظف الحرف واللغة فنيًّا. كما اهتم بوحدات الاضاءة التي تخلق بانعكاساتها الحانا من الضوء والظل على جدران الفراغات المختلفة فتثري التجربة البصرية للمكان مهما كانت مساحته وبساطته.

قيمة المسيري المعمارية والعمرانية

الطرح الفكري للمسيري نبه الحركة المعمارية إلى بديل غير مسبوق. لم يعد خيار المعماري ينحصر في توجهين اشتهرا في مصطلحات العمارة والعمران العربي: الأصالة والمعاصرة أو التقليدي والحداثي. رفض المسيري الاستغراق

المفرط في الماضي واعادة انتاجه بصورة مسطحة ترفض اللحظة المعاصرة بكل الياتها وملامحها. كما رفض الاندفاع الكامل الى حقبة غربية ننحاز اليها انحيازا كاملا ونقبل منها كل ما تطرحه من علاقات وبدائل للحوار بين الانسان والمكان. ولذا كان طرحه البديل الذي استند على الركيزة الفكرية لكتابه الشمولي "اشكالية التحيز" وهو الطرح الذي يستوعب قيمة الماضي واثره في تشكيل الهوية والخصوصية الثقافية والشخصية المكانية، ولكنه ايضا يتفهم قدرة المبدع العربي على رفض التحيز للمشروع الغربي والتمعن في تحليله ونقده واعاده تركيبه بما يجعله مساهما في الرؤية العربية المعاصرة للإنسان والمكان او بالأحرى العمارة والعمران. ان الاثر الذي تركه المسيري في الفكر المعماري والعمراني العربي لا يقل ابداً عن مساهماته الفلسفية والاجتماعية وموسوعاته. بل يضعه يقينا على رأس قائمة المفكرين والمبدعين المعاصرين الذين ساهموا في اعادة توجيه البوصلة الفكرية للحركة المعمارية المعاصرة في مصر والعالم العربي. ان الاطروحات النقدية التي صاغها المسيري بجانب ما طرحه مفكرون مثل محمد اركون والمهدي منجره، رسمت اطارا فكريا لمدرسة إبداعية معمارية عمرانية تعتز بماضيها وتراثها العربي والاسلامي، وتدرك وترغب في استيعاب قيمة الفكر الغربي المعاصر.

أنا امشي إذن أنا انسان

يتوقف المراقب العربي لتطور معايير جودة الحياة في المدن الغربية حائراً، عندما يكتشف ان تشجيع المدينة لساكنيها وزوارها على المشي اصبح متصدرا لمعايير الحرص على حياة أفضل وأصح وأكثر تفاعلاً على المستويات الاجتماعية الانسانية. كنت قد عدت من رحلة علمية بحثية إلى بلجيكا زرت خلالها ثلاث مدن هي بروكسل ولوفن وانتورب حيث قمت بعمل محاضرات عامة في الجامعات ولقاءات مع الباحثين في برنامج الدكتوراه في العمران والتخطيط. القيمة الأهم البارزة في المدن الثلاث هي صداقتها الحميمة للإنسان. كل شوارع المدينة وميادينها وفراغاتها مجندة من أجل تجربة مكانية جميلة للإنسان (الرجل والمرأة والطفل والمسن وحتى اصحاب الاحتياجات الخاصة). تذكرت وأنا أتجول في شوارع المدن الثلاث الكتاب الرائع "تصميم الشوارع:

السر لمدن ومستقرات عظيمة". التساؤلات الهامة التي كنت أطرحها على نفسي في تجوالي المستمر بشوارع وميادين المدن الثلاث: ما هي العوامل التي تجعل بعض الشوارع جميلة وعظيمة ومحبوبة من سكان المدينة وزوارها؟ لماذا ننجذب إلى بعض الشوارع ونحبها ونتذكرها ونعاود زيارتها ولا نشعر بنفس المشاعر مع شوارع أخرى؟ وهل حقا أن هذه الشوارع تجعل المدينة كلها أفضل وأجمل واكثر قرباً من الأنسان؟. يتوجه العالم اليوم متسارعا إلى فن وتطبيق تصميم شوارع صديقة للإنسان. وبإيمان كامل بأن الشوارع الجميلة بل بالعظيمة هي السر الأكبر والأهم في تصميم وتخطيط مدن ومستقرات جميلة وعظيمة. هذا التوجه العالمي الذي يتحكم الأن بقوة في بعض أدبيات العمران والتخطيط والمؤتمرات المهمة، ويعني بفكرة خلق شوارع للإنسان وليس للسيارة. وأهمية التعامل مع الشارع كشريان للحياة الإنسانية ومسرح لأحداثها بدلا من ان يكون مجرد محور مروري يحتفي بالسيارات ويمجدها.

نحو شوارع أجمل وأكثر إنسانية

إذن القضية ليست فقط وجود ممرات للدراجات أو ممرات للمشاة في مخطط المدينة. أنها نظرة أكثر شمولاً على الشارع، وكيف يصبح مفعماً بالأنشطة ومحفزاً على الحركة ومفعلاً للتواصل المجتمعي. هذا ما نرصده بوضوح في حالة مدن مثل بروكسل او فيينا او امستردام أو ميونخ. دعونا نصمم الشوارع في مدن العرب كأماكن للناس وفقط للناس ولإسعاد الناس. لقد أثبتت تجربة مناطق المشاة الأمنة أن المواطن والمقيم والزائر راغبين في التجارب الانسانية الممتعة

والتجول في أماكن جميلة يسعدون فيها بالحوار والتفاعل وتذوق الاطعمة والتسوق وهم جميعا سائرين على الاقدام. دعونا نصمم شوارع تشجع الناس على الخروج من سياراتهم والسير على الأقدام او ركوب الدراجات. لدينا في السياق العربي فرصاً مثالية لتصميم مجموعة من أفضل الشوارع الصديقة للإنسان والتي يقينا ستجعل مدن ومستقرات العرب أكثر جمالا وأكثر إسعادا لسكانها وزوارها.

تخطيط الإحياء السكنية الصديقة للمشاة

على صعيد الاحياء السكنية، وثقت العديد من الدراسات البحثية سلبيات الإحياء السكنية الجديدة في المدن العربية والخليجية المعاصرة وخاصة من حيث فشل الكثير من المخططات في تشجيع السكان على السير والتجول والتفاعل الايجابي مع البيئة العمرانية. ولكن تفتقد تلك الدراسات تفسير أسباب ظاهرة عزوف المواطن العربي والخليجي عن التجول في الحي السكني او في المدينة ككل كما لم تطرح حلول او منهجيات لإعادة صياغة العلاقة بين الإنسان والمكان. عندما نتأمل حال الأحياء السكنية في دول عربية متعددة نلاحظ عدم توافر المعايير المسببة لنجاح حركة المشاة بالحي السكني القائم. لذلك نحتاج إلى تقديم حلول ومقترحات لكيفية رفع مستوى صداقة الأحياء السكنية للمشاة وجعل نشاط المشي أمن وكفء وفعال. وفي اطار هذه المنهجية يتم تحليل الفراغات الخارجية في الأحياء المختارة لبيان التجربة العمرانية في كل منها وخاصة من حيث التشكيل

الفراغي والنسب والتنسيق وعناصر التشجير ومعالجة الأرضيات والعناصر المكملة والأثاث الثابت والمتحرك والمهيأة للفراغ العمراني. من هنا تأتي اهمية اقتراح منهجية متكاملة لتحسين نوعية التصميم العمراني للحي السكني في المدينة العربية. هذا التحسين ينبع من خلال تفعيل فكرة المشي واستكشاف الحي والمدينة ككل من خلال السير والجولان. ويجب ان تعتمد هذه المنهجية المقترحة على مجموعة من المبادئ والمعايير والأنساق التصميمية والعمرانية والتخطيطية التي يمكن من خلالها تقييم الحي السكني في مرحلة التصميم والتخطيط لتحديد مستوى توافق التصميم مع متطلبات حركة المشاة بصورة أمنة ومتميزة ماديا وفراغيا وبصريا ونفسيا. على ان تمثل هذه المنهجية منظومة مرجعية يمكن ان تستخدم في المشروعات المستقبلية وفي تحسين المشروعات الحالية على السواء. ولذا يتبلور التساؤل: هل يخضع تخطيط اي حي سكني في اي بلدية عربية لمعايير تقييم ترتبط بقدرته على تشجيع المشي واحتضانه وصداقته للمشاة؟

البقاء للأقوى: انتصار الاسفلت والسيارة في المدن العربية

في الوقت الذي تتخلص فيه المدن الغربية من السيارات وخاصة في مراكزها. بل وتتخلص من الطرق السريعة وتحولها الى محاور حدائقية مثل حالة مدينة هامبورج، او تعلن مركز المدينة خالياً من السيارات مثل هيلسنكي، فقد تجاهلت المدن العربية الإبعاد الإنسانية في مخططاتها العمرانية واندفعت إلى سباق تنموي أسقطت منه معايير ترتبط بحقيقة أن المدينة هي نطاق للحياة الآمنة المنتجة والممتعة تسمح بتجاور واستيعاب قطاعات متعددة ومتنوعة من المجتمع

الإنساني كالأطفال والبالغين والنساء وذوي الاحتياجات الخاصة . واصبح انجاز المدن العربية في طول الكيلومترات الجديدة من الاسفلت التي اضيفت لرصيدها من الطرق المخصصة للسيارات. ففي إطار مفاهيم التنمية والتحديث تبنت المدن العربية وخاصة الخليجية السيارة كأسلوب متطور للانتقال داخل المدن. إلا أن السيارة جلبت معها العديد من السلبيات التي أثرت على الحياة العمرانية وأصبحت مصدرا للعديد من المشاكل البيئية والاجتماعية وأيضا الجمالية. اهمها تهديد وإنهاء انساق حياة الشارع التقليدية وعزل الأفراد وتفكيك النسيج الاجتماعي للجماعات الإنسانية. يضاف إلى ذلك ضعف بل تقلص دور الفراغ العام وخاصة الحدائق والمتنزهات والميادين والساحات.

يجب ان تتضافر الجهود من اجل الدعوة إلى مفهوم تنموي جديد للمدينة العربية المعاصرة وهو مفهوم المدينة الحية النشطة الإنسانية. وهذه المدينة المفعمة بالحياة هي مدينة تحتضن في شوارعها وأحيائها محاور حركة للمشاة وراكبي الدراجات. وهي أيضا مدينة مليئة بالفراغات العامة الحدائقية النشطة الجميلة التصميم الجيدة الصيانة وهي مدينة صديقة للطفل والمرأة والمسن وذوي الاحتياجات الخاصة. إننا نحتاج ارادة جماعية في العالم العربي تمكننا من تبني إستراتيجية شاملة لتفعيل مبادرة حيوية لتحويل المدن العربية وبالأخص المدن الخليجية الى مدن متحررة من السيارات تعطي الأولوية للمشاة وراكبي الدراجات وشبكة النقل العام. ايجابيات هذا التوجه متعددة، وخاصة من حيث

تحسين المعيشة ونوعية الحياة وتحقيق التنمية المستدامة وتطوير مدن تراعي الأبعاد الإنسانية في تنظيمها ومحاور حركتها وفراغاتها وتنظيمها الوظيفي والتشكيلي والجمالي. سواء كنا في مدينة خليجية مرتفعة الدخول أو في مدينة عربية محدودة الدخول، فان القضية ملحة ومهمة. دعونا نتبنى تصميم الشوارع كأماكن تغري الناس على الخروج من سياراتهم والسير على الأقدام وركوب الدراجات واستخدام المواصلات العامة. صحيا واقتصاديا وانسانيا وجمالياً وبيئياً يبدو ان المدينة الصديقة للمشاة هي مدينة المستقبل فهل ننتبه في العالم العربي من الأن أم ننتظر كالعادة حين تتسارع معدلات إعتبار الكثيرين من قاطني المدن العربية ضحايا لإنسانية المدينة.

تأملات معمارية مصرية في الرمزية التركية

كان يوم الخامس عشر من يوليو عام 2016 على وشك ان ينهي علاقته بالتقويم يوماً عادياً في حياة الأتراك والعالم حتى حلت الساعة الحادية عشر قبل منتصف الليل. اندفعت عناصر من الجيش التركي إلى الشوارع والجسور، طارت المروحيات واطلق الرصاص في المدينة التي كانت توشك على النوم. مهما كان توجهك أو مرجعيتك الفكرية أو الدينية أو حتى السياسية فلا يمكن ان تتجاهل مجموعة من المشاهد الفارقة التي حفلت بها هذه الليلة في رحاب مدينة اسطنبول، المدينة التركية المبهرة، مدينة التلال والمآذن. توالت الاحداث متسارعة من قطع جسر البوسفور بواسطة فصائل من الجيش الوطني وحتى استقبال الرئيس المنتخب بواسطة شعبه معلناً انتهاء محاولة الانقلاب. ما بين المشهدين تجلت بطولات كثير من افراد الشعب التركي الذين ادركوا بوعيهم ان

التضحية واجبة حتى لا تعود بلدهم الى مسلسل الانقلابات البغيض. رأينا شباب ورجال تركيا يقفون أمام الدبابة والسيارة المصفحة رافضين تحركها. رأينا السيدة التركية، شجاعة وحيدة، تعنف الجنود المنقلبين وتصرخ في وجوهم اذهبوا بعيدا واتركوا بلدي. رأينا الرجال يعيقون حركة الدبابات بسياراتهم فتمر فوقها الدبابة فتسحق السيارة والبطل الشهيد داخلها. رأينا شباب يستقبلون الرصاص بصدورهم ويسقطون أمام مبنى بلدية اسطنبول وجسرها الشهير، وهم يدافعون عن بلادهم ونموذجها المدني الديمقراطي.

مع اشراقة أضواء الصباح كان الشعب التركي قد ضحى بمائتين وخمسين شهيدا في ملحمة بطولية لا تنسى. بينما تجاوز عد المصابين 2200 مصاب في عدة ساعات. ثم مر عام وجاءت لحظة الاحتفال والتذكر وتكريم من ضحى بنفسه في سبيل وطنه ومبادئه، فماذا فعلت تركيا؟ تأمل ماذا قال المسئولون الاتراك: "حتى لو كنا قد دفنا شهدائنا في أرض الواقع، فأنهم دائماً يعيشون في قلوبنا. أما مدبري الانقلاب فسوف يموتون مرارا وتكرارا كل يوم حسرة وندماً وهم قابعون خلف جدران السجن" . ثم ولمزيد من الدلالات الوطنية والرمزية واعلاء روح الانتماء سمي يوم 15 يوليو يوم "الديمقراطية والوحدة الوطنية".

تضمنت إحتفالية الذكري الاولى لدحر انقلاب يوليو 2016، من ضمن العديد من الانشطة والفعاليات تشييد نُصب تذكاري لتخليد ذكرى الشهداء. تم تكليف فريق من المصممين والتشكيليين والمعماريين ومنسقي المواقع للتفكير المبدع في

الكيفية التي يتم تخليد ذكرى هؤلاء الابطال. جهد ورحلة من التفكير الخلاق انتهت بتكوين تشكيلي جمالي له دلالات رمزية عميقة. يقع النصب التذكاري بالقرب من ركيزة الجانب الاسيوي من جسر البوسفور، والذي تم تحويل اسمه الى جسر شهداء 15 يوليو، حيث جرت أعنف الاشتباكات وقتل عشرات من المدنيين على يد مجموعة الخونة من العسكر المنقلب. تم تشكيل النصب التذكاري كتكوين ثلاثي الابعاد على شكل قبة لإعطاء الاحساس باللانهائية والاستمرارية، وأيضاً من أجل تكثيف الرسالة الروحانية للمكان. في الوقت ذاته تشكل جسم القبة من تكوينات جيومترية متداخلة تبرز مضمون التضافر والتعاون والاتساق بين الجميع من أجل الوطن الذي تتوحد أمام مواجهة تحدياته كل الفصائل وتذوب كل الفوارق. القبة ترتكز على اربع عقود تراثية المرجعية، ومنها الى اربع قواعد هندسية التكوين ترمز للرباعية التي اصبحت شعاراً للشعب التركي: شعب واحد، وطن واحد، علم واحد، دولة واحدة.

من داخل فضاء القبة تُكثف مشاعر الاحتواء، وفي ذات الوقت تستمر العلاقة البصرية مع السماء من خلال أنساق الفتحات هندسية التكوين ليتكون نسيجاً بديعا بين الداخل والخارج وبين الفضاء الحميم والسماء المفتوحة. في الداخل ايضاً، يشاهد الزائر اربعة عقود مرجعيتها مفردات عمارة المجتمعات الاسلامية، تلتف في حميمية وقد نقش على ثلاث منها اسماء كل الشهداء الذين سقطوا في هذه الليلة الفارقة في مصير تركيا. بينما العقد الرابع ينفتح على مشهد الجسر ليذكرك

دائما بلحظات التضحية والوفاء والانتماء. كل شهيد محفور اسمه للابد ليس فقط في ذاكرة وطنه، ولكن ايضا في لوحات انيقة بإبداع خطي متناسق لكي يراه كل زائر ويتأمل بطولاتهم ويُلهم من شجاعتهم. اما السياق الخارجي للنصب التذكاري فقد تشكل خلاله حديقة للشهداء زرع فيها مجموعة من الاشجار عددها مطابق لعدد شهداء تركيا، شهداء يوم 15 يوليو يوم "الديمقراطية والوحدة الوطنية". كل شهيد له شجرة تحمل اسمه فاكتملت الحديقة بمائتين وخمسين شجرة. هنا تتدفق رسالة رمزية جديدة فقد تحول الشهيد ليس فقط الى ذكرى أو اسم محفور على جدار، ولكنه اصبح ركيزة لرمزية استمرارية الحياة مُعبرا عنها بالأشجار الخضراء المزدهرة التي تحمل الثمار وآيات النمو ودلالات الاستمرارية وتأكيدات قوة الحياة وقيمتها.

لا استطيع ابدا وانا ابدي اعجابي الشديد بمنطق وعمق النموذج التركي لتكريم شهداء ليلة 15 يوليو 2016 لمنع مسار الحرية والديمقراطية والعدالة من الارتداد، انا اتوقف عن التألم لحالة شهداء بلدي مصر الذين سقطوا في ثورة 25 يناير اعظم ما حدث في مصر في عصرها الحديث. نسينا أو تناسينا الشهداء وأجبرنا على ان ننسى ميدان التحرير. لم يعد خافيا على احد ان هناك جهداً منظماً لإعادة تشكيل الوعي المصري حتى يسقط تماما اي قيمة معنوية او انسانية او نضالية لثورة 25 يناير 2011. انتهت كل المبادرات لتخليد ثورة وشهداء يناير مع الجهود المكثفة الرديئة التي زيفت الوعي الجمعي للمجتمع المصري بحيث يقبل قطاع كبير منه ان تتحول ثورة 25 يناير الى خطيئة وتسمى نكسة أو

وكسة 25 يناير. تدريجيا، لم يعد لميدان لتحرير قيمة، وحتى المثقفين والكتاب والمنظرين و اساتذة العمارة والعمران وجهاز التنسيق الحضاري ونقابة المهندسين (شعبة العمارة) وجمعية المعماريين فكلهم مع سبق الإصرار والترصد نسوا او تناسوا التحرير. وكل الأطروحات الخاصة بمستقبل الميدان كفضاءاً عاماً للشعب وأرضاً لتمجيد شهداء يناير، تم اغتيالها وصمتوا عن موتها جميعاً صمتاً مُخجلاً. نعم ففي الوقت ذاته الذي احتفلت فيه تركيا بالتكريم الرمزي العميق لشهدائها، لم نتجاهل نحن فقط شهداء ثورة 25 يناير، ولكن تدريجياً وعبر خمس سنوات من تزييف الوعي أسمينا ثورة يناير "وكسة يناير" وأسمينا شهداء يناير "خونة يناير". حاولت ان استشعر الفارق بين أب أو أم توجه للنصب التذكاري في تركيا ليقرأ أسم ابنه محفورا في ذاكرة الامة للابد، ويترحم عليه ويفخر به ويتلقى تهنئة الجميع على بطولة ابنه الشهيد، وبين أب أو أم مصرية فقدوا أعز ما يملكون، فلذة أكبادهم، فداء لمصر وكل ما تحصلوا عليه في ذكرى إستشهاد أولادهم وبناتهم كل عام فقط تأكيداً ان ابنك "خائن" شارك في "الوكسة". نعم خائن لا يستحق نصب تذكاري ولا لوحة ولا اسماً منقوشاً في أي مكان. عندما تتأمل متعمقاً في هذه المفارقة ينتابك شعوراً ثلجياً مقبضاً مخزياً لا تخففه الدموع لأنه أعمق من الحزن وأقسى من الألم وأدمى من نريف كل الجراح. نحن اكبر مؤامرة على انفسنا.

علي عبد الرءوف

جدران وأسوار

لم أستشعر خطورة الجدار بمعناه الرمزي والمعنوي إلا وأنا استمع في مراهقتي، إلى أغنية الفريق الموسيقي الانجليزي بينك فلويد الشهيرة "حجرا اخر في الجدار" من الالبوم الاكثر شهرة في نهاية السبعينات حيث صدر عام 1979 بعنوان "الجدار". كانت اغنية مفضلة لي لأنها ترصد لحظة التمرد على تحويل الطلاب الى مجرد بلوكات حجرية تضاف الى الجدار العملاق الذي تتبناه المؤسسة التعليمية الرافضة للتمايز والحرية والابداع. قمة البلاغة المتمردة على أفكار القولبة والنمذجة وحصار العقول في كلمات الاغنية: "لا نحتاج تعليماً...لا نحتاج سيطرة فكرية...لا نريد سخرية سوداء في الفصول...أيها المدرس أترك الاطفال...ففي النهاية انت مجرد حجراً اخر في الجدار...لن اكون حجراً اخر في الجدار". معاني ثورية تحمل رفض القولبة والرغبة في التفرد وعدالة الاختلاف. من هذا المنطلق كان تأملي الدائم للجدار المادي والمعنوي، ثم اصبح الجدار

محورا رئيسيا في فكري عندما ارتبطت بالعمارة والتصميم مهنيا واكاديميا. فالجدار هو أحد أهم مفردات المعماري في تشكيله للصياغات المكانية التي يشغلها الأنسان أو الجماعة الانسانية حيث يمارسون خلالها انشطتهم المختلفة. الجدار في العمارة يحتضن داخله فضاء مكاني انساني، وطبيعة تشكيل الجدار ومواد بنائه تساهم في الإدراك الانساني والشعور الحسي بهذا الفضاء.

القصة التاريخية للجدار شديدة الثراء، ففي العمارة الفرعونية كان الجدار سواء خارجيا مثل جدران المعابد الجنائزية او داخليا مثل جدران المقابر في صعيد مصر، جداراً معرفياً وسجلاً ثرياً لوقائع واحتفالات وغزوات وطقوس. كان الجدار هو كتاب الحضارة المفتوح الذي تركه الفراعنة للعالم من بعدهم. هذا النسق الثقافي الموروث، استمر مع الفتح الإسلامي لمصر، ونظرا لحجم المشقة التي كان يلاقيها الحجاج في انتقالهم إلى مكة في رحلة تستغرق شهوراً، كان المصريون يخلدون تلك الرحلة على جدران منازلهم لتذكرهم ومن حولهم بقدسية وروحانية الفريضة. استمر فن التعبير الشعبي عن الرحلة المقدسة حتى الوقت المعاصر في بلاد النوبة وريف وصعيد مصر. حيث مازال الجدار الخارجي للمنزل يقدم شاهدا على الحالة النفسية والروحانية بل والاجتماعية وتتجدد معالجة هذا الجدار مع ديناميكية النسق الاجتماعي. فمع عودة الحجاج تنتشر رسوم "الكعبة" بيت الله الحرام، وحولها الطائرات والبواخر وعبارات الشكر والدعوات "حج مبرور وذنب مغفور". تتحول جدران البيوت الي جداريات تتسم

بالحيوية وتؤسس لظاهرة يتسم بها الريف المصري. ويتولى رسم هذه المناظر الجميلة فنانون شعبيون بطريقة فطرية. ثم تتغير شخصية الجدار الخارجي للبيت الشعبي في صعيد مصر استعدادا لاستقبال شهر رمضان المعظم، ويستمر التجدد مع مناسبات اخرى كالمولود الجديد او الزواج حتى يمكن تشبيه الحائط بالشاشة التي تتغير مشاهدها بصورة موسمية.

تكون الجدران المعمارية والعمرانية احيانا باردة قاسية تمزق الشعوب وتدمي القلوب، خاصة عندما تتحول الى اسوار. واشهر هذا التصنيف جدار برلين الذي بني عام 1961 وبقى رمزا للقهر والظلام حتى ثورة 1989 التي بدأت في مدينة ليبزج الالمانية وامتدت لكل مدن المانيا وانتهت بسقوط جدار برلين، وعجز الشرطة الالمانية الشرقية عن ايقاف سيل المواطنين المندفعين الى الشطر الغربي لمدينة برلين تنفساً للحرية واقتراباً من اقارب واصدقاء فرقتهم الاحجار العالية والاسلاك الشائكة التي مزقت اجساد بعض ممن تجرء بمحاولة العبور. الدراما مماثلة ولكنها اكثر قسوة ووحشية ولا انسانية في حالة جدار الضفة الغربية بالأراضي المحتلة حيث يمزق الجدار الخرساني الرمادي البارد شعب كامل ويمنعه من الوصول الى المدرسة والطبيب والجامعة، واحيانا رغيف الخبز. المدهش ان فكرة الحصار بالجدران مازالت رائجة ولم يتعلم حراس السجون الكبرى، التي تخلقها الجدران، من تجربة برلين. فما تزال اسرائيل تحاصر نفسها اكثر من حصارها للأخرين بمشروعها لبناء جدار على الحدود اللبنانية ومشروعها الاخر مع مبارك المخلوع لعزل الشعب الفلسطيني من جهة شبه

جزيرة سيناء بجدران من الفولاذ. اما جدار السفارة الاسرائيلية في القاهرة الذي بنته الحكومة المصرية بعد ثورة 25 يناير، فحياته كانت قصيرة لم تستمر سوي ايام معدودة استخدم في بداياتها كمجال للجرافيتي الرافض ثم انتهت حياته بانتفاضة من الثوار هدموا فيها الجدار الخرساني بأيديهم العارية. فالجدار المعماري الخارجي طالما استخدم في اوقات الثورات الشعبية للتعبير عن نبض الشعوب ونشر رسائل علنية حرة لا تخضع لرقابة وسائل الاعلام. في حالة الثورة المصرية تحولت الجدران وخاصة جدران المباني المحيطة بميدان التحرير الى اداة لنشر الوعي السياسي والثوري تمهيدا لحقبة جديدة في تاريخ مصر. لتخرج لنا في النهاية ما انتجته الثورة من قوالب تصويرية شديد الخصوصية. جعلتنا أمام صورة درامية حية تُجسد لنا حالة فريدة لفنانين فطريين وطنيين مولعين بانغام وروائح واصوات الحرية التي صدحت عاليا في الميدان.

عمارة اللاجدار: ديمقراطية العمارة

الشفافية والاختراق البصري قيمة من القيم التشكيلية والرمزية التي تحققها الجدران المعمارية. تأمل عبقرية المعماري الشهير الامريكي الصيني الاصل اي ام بيي في خلق الهرم الشفاف البديع امام الواجهات التاريخية العريقة لمتحف اللوفر ليضمن استمرارية بصرية وشفافية مطلقة بين المتحف القديم والجناح الجديد دون خلل في الاتساق المعماري والعمراني للتكوين الاصلي. كما يقدم الجدار الشفاف في المسجد والمركز الاسلامي بمدينة بينزبيرج بمقاطعة بافاريا

الالمانية مثال متميز على مفهوم القيمة الرمزية لشفافية البصرية. حيث ينفتح المسجد على المجتمع المحيط ويسمح بتواصل بصري يرى فيه المتحرك بجوار المبنى رقي العبادات الاسلامية وتحضر المسلمين. يستوقفنا ايضا مبنى البرلمان الالماني الذي افتتح عام 1999 للمعماري العالمي نورمان فوستر الذي صمم قبة زجاجية عملاقة محاطة بمنحدرات يصعد اليها عامة الشعب وعندما يصلوا الى القمة ينظرن الى القاعة الرئيسية بمن فيها من رؤساء ونواب طارحا رسالة رمزية بليغة مفادها ان السلطة بيد الشعب وهو الاقوى والاعلى والمراقب، قمة الديموقراطية عندما تسقط الجدران.

المعماري المبدع والجدار الذاتي

اخطر ما يواجه المبدع هو ان يخلق جدرانه الذاتية التي تحكم افكاره، وتحصر ابداعاته. هذه الظاهرة التي اسميها "بناء الجدران الذاتية: جدران العقل والروح"، والتي انتشرت بين المعماريين والعمرانيين العرب فانقسموا الى تصنيفين متمايزين. الاول يبني حول عقله جدارا يحاصر داخله افكارا تراثية قديمة ويستبسل لمنع التدفقات والنبضات الابداعية الغربية من الاقتراب. الثاني استخدم الجدار العقلي لتحقيق العكس فحجب العمق التاريخي تماما واسقطه من منظومة انتاج المكان، وتوجه الى الانفتاح في الجدار ببوابات عملاقة على المشروع الغربي محتضنا باستسلام كل ما يطرح خلال هذا المشروع دون مواجهة نقدية او تفسيرية. والواقع ان كلا الجدارين او التوجهين متحيزين فاصلين عنصريين. فالمبدع يتمتع ويلهم بالرفض والتمرد وهدم كل الجدران. بل ان البعض يفسر

عبقرية العملية الابداعية في القدرة على هدم الجدران لبناء فضاءات ارحب للتأمل والتفكر والمساهمة المبدعة.

هدم وتفكيك وبناء الجدار

التحدي الحقيقي هو تنبه المعماري والعمراني إلى مهمته الاولى وهي صياغة حواراً بين الأنسان والمكان أو بالأحرى صياغة نطاقات حياتية ديناميكية مفعمة بالطاقة والتحولات. هذا الفهم يسقط الحصار الفكري والعقلي، ويهدم كل الجدران المعنوية والمادية احياناً ويتبنى مدخلاً لاستمرارية تعريف وإعادة تعريف الجدار أو الغلاف المعماري. كما يعطي مشروعية كاملة لهدم جدران العقول واعادة تفكيك عقول الجدران والأسوار وكل الحواجز.

علي عبد الرءوف

المعماري حسن فتحي تلميذ الفقراء

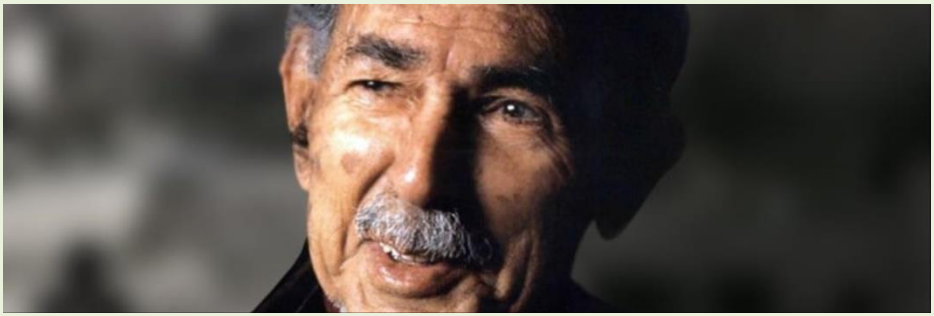

بقدر معرفتنا الكاملة في العالم العربي بالسير الذاتية لمن يسمون بالفنانين ولاعبي كرة القدم، فإننا نقف دائما على مسافة لا نهائية من معرفة العقول التي شكلت علامات مميزة في المسار المعرفي والابداعي والانساني لمجتمعات الشرق الاوسط. كنت امارس مع تلاميذي في العمارة والعمران، تجربة لطيفة عندما اطلب منهم ذكر عشرة اسماء لمعماريين عرب بارزين أو لاعبي كرة. كانوا يجدون وهم دارسي العمارة والعمران صعوبة عظمى في القائمة الاولى بينما الثانية تكتمل في اقل من دقيقة. من هذا المنطلق اجد نفسي مهتما بإلقاء القليل من الضوء على معماري ومفكر وفيلسوف أسس توجها فارقا في مسار العمارة المصرية والعربية والعالمية. هو العالمي شديد المحلية المعماري حسن فتحي (1900-1989). جانب من تميز حسن فتحي يتجاوز فكرة المبنى المنفرد لينطلق الى فلسفة التصميم والتخطيط والبناء للمجتمعات المتكاملة وخلق روح التفاعل

والتشارك والتعاضد بين افراد هذه المجتمع في تحقيق احلامهم المشتركة لحياة انسانية تحفظ كرامتهم مهما كان مستوى فقرهم. كان حريصا على بناء المجتمعات أكثر منه على تشييد المباني وهو من قال أن شخص واحد لا يستطيع ان يبني بيتا ولكن عشرة اشخاص يمكن ان يبنوا عشرة بيوت.

ولد حسن فتحي وترعرع في مناخ اجتماعي ثقافي عائلي ارستقراطي، وتخرج من جامعة فؤاد الأول بالقاهرة عام 1926 في حقبة سيطرة اوربية قيمية مفاهيمية استعمارية على السياق المصري والعربي. كما عاصر حسن فتحي مناخا مهنيا واكاديميا مستغرقا ومستسلما لمبادئ وتعاليم المدارس الاوربية والطرز الغربية في العمارة والعمران. ولكن جزء من تفرده كان التمرد على هذا الاستغراق والاستسلام ودعوته الى التعلم من الواقع المحلي المتواضع في مظهره، الثري في عمق افكاره ومقاصده. وفي الوقت الذي كان زملائه واساتذته يتطلعون الى لندن وباريس لنقل ما يمكن استخدامه في السياق المصري والعربي، كان فتحي يزور قرى النوبة منحنيا متواضعا منفتحا ليفهم منطق بديع للبناء المتوافق مع البيئة والمتاح والعادات والتقاليد ومنطق الحياة وروح المجتمع. عظمة حسن فتحي في تماسكه وقدرته على رفض الانسياق لعالمية غير ملائمة، والتواضع امام محلية تستحق التفكر والتأمل بل والتعلم منها. لقد تميز فتحي بذكاء فريد وبإنسانية راقية مكنته من التواضع امام الفطري البسيط والاستماع للبدائي تاريخي التجارب ليتعلم منه دروسا ملهمة. هذه الدروس التصميمية والبنائية

والفنية والاجتماعية والثقافية مكنته من صياغة توجها عالميا بلوره في كتابه الشهير "عمارة الفقراء" الذي تحول الى مرجعية اساسية لكل مدارس العمارة في اوروبا وامريكا بعد ازمتها مع الحداثة التي اغفلت الانسان والمكان والتاريخ واعلن موتها في ادبيات العمارة والعمران منذ الستينيات.

تخيلوا قرابة سبعة عقود تفصل بين افكار حسن فتحي الفارقة في مفاهيم عمارة الفقراء وبين المعماري التشيلي أليخاندرو آرافينا الحائز على جائزة « بريتزكر» عام 2016 ومنسق بينالي العمارة فينيسيا في الدورة السابقة. الاخير تحول الى نجم وهو نفسه يعترف بارتكازه الفكري المفاهيمي على افكار وكتابات حسن فتحي بينما الاخير هُدمت اعماله واهُملت وهُوجمت وتركت اطلال تشهد على مصداقية المقولة الشهيرة: لا كرامة لنبي في وطنه. تأمل توثيق حسن فتحي لأفكاره عن أهمية عمق العلاقة بين المعماري وبين البيئة الطبيعية التي خلقها الله سبحانه وتعالى: "البيئة هي الظروف المحيطة التي تؤثر في النمو والحياة ، وفيما يتعلق بالعمارة يمكن القول ان هناك بيئتين ، الأولى هي البيئة الطبيعية التي من صنع الله سبحانه وتعالى ، الثانية هي البيئة الحضرية التى من صنع الإنسان ، وعلى المعماري ان يحترم البيئتين فيما يضعه فيهما من منشآت فإذا لم يحترم الاولى التي من صنع المولى عز وجل كانت خطيئة ، واذا لم يحترم الأخرى كانت قلة احترام لمن سبقوه شريطة ان يكون هؤلاء قد احترموا البيئة التي هي من صنع الله ".

ملمح فارق ايضا من ملامح شخصية حسن فتحي المبهرة هو انه لم يكترث لمقاومة الرافضين من اقرانه من المهنيين والاكاديميين والرسميين بسبب اصالة الفكر وعمق الايمان ومصداقية المبدع. لقد حرم من المشروعات والتقدير بل حرم من دخول بعض الجامعات المصرية التي كان اساتذتها يرون في افكاره تهديدا لعروشهم الكلاسيكية المستوردة. بعد كل هذا الرفض والمقاومة بدأ تقدير السياق المحلي والاقليمي لحسن فتحي فقط بعد تقديره العالمي من الاتحاد الدولي للمعماريين ومن منظمة الاغاخان للعمارة الاسلامية ومع تحول افكاره وكتاباته الى مناهج في مدارس العمارة والعمران في ارقى جامعات العالم. هنا فقط ادركنا ان بيننا مبدع عربي يستحق ان نستمع اليه ولكن الوقت كان قد سبقنا حيث استهلك فتحي في سنوات نضال ومقاومة طويلة انهكته.

عذوبة سجن المرجعية الشكلية

إن الفهم الحقيقي لإنجاز حسن فتحي يجب أن يتجاوز محدودية المبنى إلى آفاق الرؤية والفلسفة التي طرحها والتي ناضل من اجلها نضالا طويلا ومجهدا يمكن قراءة فصول منه في كتابه "عمارة الفقراء" فهو بنى فقط مالا يزيد عن اثنين بالمائة من أفكاره. ومن ثم فإننا يجب ان نميز بوضوح ما بين حسن فتحي كمرجعية تشكيلية وبين حسن فتحي كمرجعية فلسفية. لقد استعذب الكثيرون سجن الاشكال وتجنبوا تحليل الافكار. وفى إطار هذا الفهم نعتقد ان الإساءة الى حسن فتحي وتقليص دوره جاءت من تلاميذه اكثر مما جاءت من أعداؤه. تمتع التلاميذ

بسجن المرجعية التشكيلية التي أنتجوا من خلالها عشرات المشروعات المنفصلة عن الإطار الفلسفي لحسن فتحي والتي تكررت بصورة سرطانية فى التجمعات السياحية في شرم الشيخ والغردقة والساحل الشمالي حتى تحولت الى موضة ومرجعية شكلية لبيوت الاثرياء.

حقا ما تزال إشكالية دور تلاميذ حسن فتحي في العمارة المصرية والعربية المعاصرة قضية مثيرة للخلاف والجدل فبينما يميل البعض إلى اتهامهم بالتكرار والتقليد المباشر لإنتاج أستاذهم دون محاولة للتجديد أو التطوير، فان البعض الأخر يثنى على إنتاجهم بدعوى توافقه مع البيئة على المستوى البنائي والتشكيلي والمناخي . إلا ان التتبع الامين لجهد كل من تتلمذ على يد حسن فتحي بصورة مباشرة او غير مباشرة، يثير القلق الشديد لانهم وباستثناءات غير مؤثرة نهلوا فقط من المرجعية الشكلية لأستاذهم حسن فتحي ولم يصابروا من اجل تطوير المرجعية الفلسفية. لم ينجح تلاميذ حسن فتحي في لعب ادوارا حقيقية مؤثرة في تطوير عمارة وعمران المجتمعات الفقيرة المهمشة في مصر والعالم العربي واكتفى الكثير منهم بتصميم فيلات الشواطئ الانيقة للأثرياء باستخدام طراز عمارة الفقراء!! الا يجب ان نتوقف عن القراءة البصرية لحسن فتحي والتوجه الى قراءه افكاره وفلسفته وجعل الفقير صاحب الكرامة والتاريخ والابداع الشعبي، محور اهتمامنا ومنطلق تفكيرنا كمعماريين وعمرانيين ومخططين؟

الا يجب التوقف عن اطلاق لقب عشوائي على كل فعل يقوم به الفقراء من اجل مأوى يحفظ الحد الادنى من كرامتهم الانسانية؟ لقد ان الاوان ومع ازدياد معدلات الفقر في مصر والعالم العربي ان ندرك اهمية مفاهيمية وليست شكلية سطحية محدودة، لأفكار الرائد حسن فتحي الذي فكر وابدع وتعلم وعلم من اجل عمارة الفقراء في الوقت الذي كان الاخرون يعاقبونهم على استمرار وجودهم على قيد الحياة.

علي عبد الرءوف

لماذا يحب المعماري رمضان؟

"رمضان كريم" جملة قصيرة ولكن ما ان تُذكر حتى تتدفق أمام الأعين ذكريات دافئة عن كل ما يحمله هذا الشهر الفضيل من أجواء روحانية واحتفالية نتوق إليها كل عام. أما بالنسبة لي شخصيا فعلى الرغم من أنني اشترك مع كل أفراد المجتمع العربي والمسلم في المكانة الخاصة التي يحظاها الشهر الكريم في عقولنا وقلوبنا والمشاعر الروحانية المقدسة التي تكتنف أيامه ولياليه الا أنني أكن لهذا الشهر مكانة خاصة لأنه لم يثريني فقط روحانيا ولكنه كان احد الأسباب القوية لحبي للعمارة والتصميم والعمران وتفرغي لدراستها حتى حصولي على الدكتوراه. في طفولتي سكنت مع عائلتي في حي الدقي وهو حي يتميز بإطلالة على طرفي النقيض في تركيبة المجتمع المصري فعلى احد أطرافه قصور وحدائق إقطاعيين ما قبل ثورة 1952 وعلى طرفه الأخر حي الدقي القديم ريفي الطابع الذي تشكل من روح العائلات التي قدمت من قرى

مصر الى القاهرة العاصمة أملا في حياة ارغد وأفضل. هذه الإطلالة المزدوجة مكنتني منذ صغري من إدراك علاقة الإنسان بالمكان وهي الخطوة الأولى في فهم عمليات العمارة والعمران. وكنت في ايام شهر رمضان الكريم أتجول مع أصدقائي نكتشف الأماكن ونختبر الوجوه وتستوقفنا مشاهد الخدم والطباخين في حديقة قصر احد الإقطاعيين وهي تعد وليمة فخمة كما نتوقف امام بائع العرقسوس بزيه الجميل وأوانيه النحاسية البراقة وهو يتجول داخل حواري الحي القديم يتقافز حوله الأطفال وتستدعيه السيدات من النوافذ ليملأ زجاجات تروي عطش الصائمين، وأكثر ما أذهلني اني كنت أرى في تلك الإحياء الريفية الشعبية ليالي رمضانية أكثر دفئا وروحانية.

من اجمل ذكرياتي عن رمضان التنافس بين الاحياء والشوارع لتجميلها بما يلائم اجواء الشهر الاحتفالية المباركة. بل انني اتذكر عقد مسابقات بين الشوارع لاختيار اكثرها جمالا وكانت الفكرة تنتشر في الحي كله بل في معظم شوارع القاهرة الكبرى وتتشكل فرق الشباب والاطفال وتبدع في استخدام الاوراق الملونة المجلات والجرائد القديمة لقصها الى تشكيلات زخرفية تعلق على حبال ملونة بعرض الشارع او الحارة على مسافات متكررة. ثم يلي تلك الخطوة، توسلات الى اهل الشارع الطيبين لمدنا بوصلات كهربائية من نوافذهم وشرفاتهم يتدلى منها اللمبات الكهربائية الملونة التي تضفي جو من البهجة والفرحة وخاصة عندما تضاء كلها مع رفع الاذان لصلاة المغرب بعد انطلاق مدفع

الافطار. اما انا فكان تخصصي تصميم وبناء الفانوس العملاق الذي يعلق في منتصف الشارع وهو القطعة الرئيسية التي تكثف البهجة والفرح لدى الجميع وتؤكد هوية المجتمع وتواصله مع تراثه وتقاليده، وكنت استخدم لتنفيذ الفانوس اعواد البوص لخفة وزنها وسهولة التشكيل بها ثم اوراق السلوفان الملونة بالوان براقة زاهية لتغليف جسد الفانوس وجوانبه المتعددة بينما تتدلى الشرائط الملونة من قاعدته السفلية التي يتوسطها مصباح كهربائي. ويتم تعليق الفانوس يوم استطلاع الهلال وبعد ثبوت الرؤية يضاء الفانوس في حدث جماعي احتفالي يضم شمل الجيران والاهل والاصدقاء.

احببت في طفولتي كرم وحفاوة وخيرات الشهر الكريم وموائد الطعام التي يتجمع حولها الجميع حتى الغرباء ومازال مذاق التمر والحليب على لساني نتناوله ثم نتوجه الى صلاة المغرب ونعود لنبدأ معركة حامية الوطيس نتعامل فيها مع ما لذ وطاب من الاطعمة المصرية الشهية وخاصة صينية الفول التي لا يستغنى عنها على أي مائدة رمضانية في مصر. المسحراتي ايضا وهو الشيخ المسئول عن دعوتنا للاستيقاظ فجرا لتناول السحور وتأدية صلاة الفجر، كان يبهرني بصوته الجميل وقدرته على تذكر اسماء رجال العائلات واطفالهم وترديدها وهو يمر على كل بيت. ولا يمكن ان انسى عندما طلب منه ابي اطال الله في عمره ان يذكر اسمي في جولته وشعرت بسعادة غامرة وهو يردد "أصحى يا علي وحد الدايم" ولم أستطع النوم في تلك الليلة من فرط السعادة التي استمرت لأيام متواصلة.

تأملات معمارية في المسألة الرمضانية

ايام رمضان ايضا شهدت زيارات متعددة لواحدة من اجمل بقع القاهرة في رمضان وهي قاهرة المعز الاسلامية حيث مسجدي الحسين رضي الله عنه والازهر وحواري القاهرة القديمة ومساجدها ووكالاتها ومقاهيها وخاصة الفيشاوي المقهى الشهير. هذه المنطقة لا تنام في رمضان وتشعر فيها بالعبق الرمضاني مكثفا وغير قابل للمقارنة مع اي مكان اخر في مصر كلها. وبالنسبة لي شخصيا فان زيارة القاهرة الإسلامية كانت اكبر درس طور تذوقي واحساسي بجمال العمارة والعمران الذي انتجته المجتمعات المسلمة وجمعت فيه ما بين الجمال البصري والتشكيلي والاجواء الروحانية المقدسة. ابهرتني المشربيات والمآذن وافنية المساجد والاسبلة والزخارف الخشبية والنباتية بل انني بدأت اتذوق جماليات الخط العربي بسبب الليالي الرمضانية في شارع المعز. احببت ايضا بصورة خاصة صلاة الفجر وخاصة عندما وافقت والدتي رحمها الله على ان اذهب بمفردي الى المسجد ومازلت اذكر سماحة وجه شيخنا الكريم وهو يحفزنا على ان يكون شهر رمضان شهراً للإنتاج والتميز وليس للكسل والنوم وقتل الوقت. وهذا الدرس بصفة خاصة استوعبته جيدا واثر في حياتي تأثيرا جوهريا وأفادني فوائد جمة في مساري المهني والأكاديمي بل انني أدَعي ان شهر رمضان كان دائما من اكثر شهور العام انتاجية في كل مجالات عملي وخاصة البحثية والاكاديمية.

لاحقاً وبسبب ظروف الدراسة، انتقلت للعيش في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أخر صلاة جمعة قبل قدوم الشهر الفضيل ابديت حزني لزميل مصري كان يدرس معي وقلت له سنستقبل الشهر الفضيل في اجواء الغربة ونفتقد كل ما في بلادنا من روحانيات ومشاعر دافئة وجو اسري وعائلي جميل. وادهشني قوله طالبا مني الانتظار حتى قدوم الشهر فقد تغير رأيك. وكان محقا فكل ليلة من ليالي رمضان في مدينة بيركلي بولاية كاليفورنيا التي كنت اعيش بها، كانت احتفالية عربية مسلمة تبدا من صلاة المغرب وتستمر حتى صلاة الفجر يلتقي فيها كل الطلاب والباحثين وعائلاتهم واطفالهم ومعهم المأكولات والمشروبات الرمضانية وتقاليد بلادهم ونتفاعل يوميا روحانيا واجتماعيا وحتى أكاديميا ومعرفيا ولا ننسى تذوق اطايب الطعام التى تعكس موزاييك الثقافة العربية من المغرب الى الجزيرة العربية وحتى اخواننا من ماليزيا واندونيسيا وكل بقعة بها روح وسماحة الدين الحنيف ، وتتلون المائدة الممتدة بتبولة الشام وكسكسي المغرب ومكبوس الخليج ويتدخل القدر ليجعل الفول المصري بالخلطة الشهيرة دائما محل اعجاب الجميع.

اما في الخليج الذي امضيت فيه اخر ثلاثة عشر عاما من حياتي عملت فيها أستاذا جامعيا فان أجمل ما لفت نظري الملمح الحضاري الاجتماعي الراقي الذي ينشط نشاطا مبهرا في رمضان وهو المجالس التي يتجمع بها الأصدقاء والأقرباء والضيوف من رجال الدين والثقافة والأدب والصحافة حيث يتحول اللقاء الى

ندوة معرفية ثرية عادة ما تنتهي بغبقة طيبة المذاق من اطباق الخليج الشهية وخاصة الاسماك التي يبرع في طبخها اهل البحرين وقطر الكرماء وتنتهي الليلة بحصول الزائر على متعة المعرفة ولذة الطعام الشهي وصحبة طيبة ادامها الله على اهل الخليج وكل الامة العربية والاسلامية. كانت هذه بعض ذكرياتي وتأملاتي في شهر رمضان الكريم الذي ادعو الله ان يعود عليكم جميعا بالخير والبركات.

علي عبد الرءوف

الإسلامي ليس الحل أحيانا: حكاية المدينة والمبنى

الإسلام هو دين يطرح تصوراً شمولياً للوجود، ومنطق للحياة يُشكلها مجموعة من القيم والمبادئ المتماسكة. وهو دين جوهره يتجاوز الطقوس، وينطلق إلى عوالم الإيمان العميق والتأمل والفلسفة وإعمال العقل والتجديد والتفكير ومسئولية الأطروحات الحضارية والثقافية المستمرة. ولذا فإن ممارسة الإسلام تنطلق من الطقوس إلى آفاق المساهمة الحضارية والثقافية، وتقديم الاطروحات المبدعة للإطار الزمني الذي نعيشه. الإسلام دين لا يتعلق فقط بالأيمان المجرد، ولكنه شديد الارتباط بالأفعال والوجود والتعامل المتجدد مع الحياة. الإسلام دين حياة، وقيمة رائعة في الفلسفة النابعة من قيم الإسلام لها علاقة بعلاقة الجزء والكل. عبقرية ان الجزء دائما منتمي إلى كل وأن كل الأجزاء تساهم في تكوين الكل. البديع ان نجد في فلسفة الإسلام مبادئ لإنتاج العمارة والعمران تفتح آفاقاً إبداعية لانهائية. تأمل على سبيل المثال فكرة أن

العمارة اجتهادا يحاول أن يماثل الجنة، ويتشابه مع تصوراتنا عنها، في أنها مكان لروح الانسان وعقله وجسده يجد فيها المأوى والسعادة والامان والشفاء الروحي والوجداني. هذه القيمة لا تنتج شكلاً معيناً واحداً وقالباً جامداً، ولكنها قيمة نوعية يمكن للعقول المبدعة أن تترجمها في أشكال لا نهائية وتعبيرات فراغية شديدة التعدد والتنوع. اذن تشكل المعتقدات الإسلامية المنطق والاساليب التي يمارس من خلالها المجتمعات الاسلامية فعل البناء والتطوير والعمران. وفي الوقت ذاته يحترم العصر وايقاعه ومتطلباته كما يحترم السياق ومعطياته ويستجيب للتطلعات وللطموحات التي تتوق إليها الجماعات الانسانية.

فخ المدينة الإسلامية والعمارة الإسلامية

العمارة الاسلامية أم عمارة المسلمين أم عمارة المجتمعات الاسلامية

اذا كانت العقيدة الاسلامية تُلهم العمارة، والعمارة منتج ابداعي فني تقني تكنولوجي عصري اقتصادي ثقافي بيئي، فقد يكون من اللا منطق أن نفترض أن هناك عمارة يمكن أن توصف بأنها عمارة إسلامية لها عناصر مادية ثابتة لا يمكن تجاوزها، حتى على مدار الزمان والحقبات الماضية والحالية والمستقبلية. إن تعبيرات مثل المدينة الاسلامية، الفن الاسلامي، الجامعة الاسلامية، المنزل الاسلامي أحدثت الكثير من التخبط والتشتت في فهم دورنا المعاصر ومساهمتنا الحضارية الآنية. ما معنى اضافة صفة قد تفسر بالثبات (الدين) لكيانات يجب ان تتميز بالديناميكية والتحول والتغير والتطور (العمارة والمدينة)؟ إذن علاقتنا

بالجامعة والعمارة والمدينة والمنزل والفن يجب ان تنطلق من منظور فهماً عميقاً لأن الإسلام دافع للتطوير والأبداع وليس إطاراً حاكماً منظماً حتى لإنتاج منزل أو رسم لوحة أو لتخطيط جزء من مدينة في القرن الواحد والعشرين.

لا إسلامية العمارة والمدينة

من منظور المسئولية المعاصرة، وايضا الكيفية التي سيوثق بها عصرنا تاريخياً، يجب ان نرفض استخدام مصطلح العمارة الإسلامية والمدينة الإسلامية لأنها أصبحت تعبيرات مثير للجدل والدجل معاً. لقد اصبحت بلداننا العربية متخمة بأمثلة من المباني التي يدعى مصممو ها الانتماء الى العمارة الإسلامية لمجرد استخدام معالجات سطحية من عقود دائرية ومشربيات خشبية وزخارف حجرية. هذه ليست عمارة اسلامية واحيانا لا تستحق حتى لفظ العمارة لأنها مجرد مباني نفعية زيف شكلها الخارجي بجرعات من المكياج المعماري الاسلامي.

إن التعبير الأفضل لما يجب ان نركز عليه هو عمارة المجتمعات الاسلامية لأنها بالفعل تعبير عن مجتمعات متعددة توحدها العقيدة، وبالتالي فان المنطقي ان تتنوع مبانيها وأنماط عمارتها المحلية. تعبير عمارة اسلامية او مدينة اسلامية يحاصرنا ولكننا نتطلع الى عمارة وعمران تتسق مع العقيدة ومع الانسان ومع المجتمع ومع السياق ومع الزمن. وهو الامر الموثق في عمارة المجتمعات الاسلامية من مراكش إلى المنامة ومن مالي إلى كازاخستان. تلك المجتمعات التي استخدمت المواد والتقنيات المتاحة حولها والقيم الجمالية والتعبيرية في

مجتمعها. إذن عمارة المجتمعات الاسلامية هي الفضاءات العامة والخاصة، المفتوحة والمغلقة التي تشكل الإطار المكاني المُفعل للعقيدة والمُلتزم بمبادئها وقيمها الأساسية. بعض الوظائف تنتج من علاقة مباشرة مع العقيدة مثل المسجد ومتطلباته، وبعضها من المجتمع وتطلعاته التي تتطور وتتغير جذريا مع تغير العصر وايقاعاته.

بديهياً ايضا ان نفرق بين الانتاج المعماري والعمراني بإجماله وبين العلامات الفارقة في النسيج العمراني لمدينة ما. مثلا، مسجد ابن طولون في القاهرة أو مدارس سمرقند أو مساجد كازاخستان أو مسجد الشاه في أصفهان أو قصر الحمراء في غرناطة، إسبانيا، هي مباني فارقة تستخدم دائماً للتعبير عن عبقرية العمارة في المجتمعات الإسلامية المتنوعة. ولكننا يجب ان نتذكر ان فلسفة الاسلام ترتكز على التواضع، وتواضع البيئة المبنية جزءاً من هذا التواضع، وبالتالي فان المساجد العملاقة والقصور الفارهة الموثقة تاريخيا هي الاستثناء، وليست كلية البيئة المبنية التي انتجت حتى في عصور معينة ازدهرت فيها قيم الاسلام. كما أننا أيضا نتجاهل امرين مهمين: الأول ان هذه اعمال استثنائية وليست تعبيراً عاماً عن حالة العمارة والعمران. والثاني: ان هذه النماذج بها درجات من التنوع الشكلي والجمالي والفراغي الذي يؤكد صعوبة وجود معادلة واحدة فقط يمكن ان توصف بانها العمارة الاسلامية.

علي عبد الرءوف

الإبداع والتجديد عبادة

"العمل عبادة"، مقولة أتيقن دائماً أن التفسير العميق لها يتضمن التحريض على الإبداع والتجديد والتجويد وأن تتم كل هذه الانشطة في إطار مقدس. نعم نتعامل مع التراث ونتعلم منه ومع كل منتجات الحقبات التاريخية المختلفة، ولكن ليس من أجل البحث عن أشكال لتكرارها وحلول لنفرضها فرضاً ونصفها بالإسلامية فيشتبه الامر على الأنسان، وكأنه يتحدث عن نصوص مقدسة. إذن البحث يجب أن يكون عن مفاهيم وعلاقات وركائز للإلهام وروافد للتجديد والإبداع. يجب ان ندرس التراث في محاولة للإجابة وفهم للتساؤل المهم: ما هي العوامل والكيفية التي جعلت البيئة المبنية في عصر ما تتشكل بهذا المنطق الموثق في تراثنا؟ وهذه تساؤلات فلسفية فكرية وليست شكلية بصرية وبالتالي فهي لا تنتج طرازاً او شكلاً ولكنها تنتج منهجاً جديداً أو بالأحرى مناهجاً جديدة للتعامل مع العمارة والعمران في اللحظة المعاصرة.

المنطق الابداعي التجديدي الذي ندعو له يتجاوز مجرد إلصاق الصفة الاسلامية على مبان وفضاءات سطحية العلاقة بالمفاهيم العميقة للعقيدة. لا نريد أيضا أن نصبح ضحايا أطُر شكلية محددة ومعالجات بصرية مُلزمة. المعماريون المسلمون المجددون يجب الا يحاصروا انفسهم في قوالب تاريخية ولكن يجب ان يتعلموا من مفاهيم وانساق فكرية وأطروحات فلسفية يستدل عليها من فصول التاريخ. إذن المطلوب جهداً مخلصاً لفهم جوهر العقيدة في نطاق البناء والعمران والعمارة ثم الحرص على استمرارية التعبير المبدع المتنوع المعاصر عن هذا

الفهم. يجب عليهم الوعي الكامل بان "عمارة المجتمعات الاسلامية" هي الحل وليس "العمارة الاسلامية" لان الاولى تتيح التنوع والتعدد بقدر اختلاف وتعدد هذه المجتمعات وملامحها ومكوناتها ومقوماتها وتحدياتها. المعماري المسلم المعاصر يجب ان يحركه رغبة ملحة في الأبداع، وفي وضع بصمة جديدة في مسار التاريخ تشهد على استمرارية قيمة الأبداع وليس استمرارية الطراز. ويجب عليه ان يتحلى بالمسئولية نحو التميز وإدراك لقيمة دوره الجزئي الصغير في المنظومة الكبيرة التي تعبر عن تفاعل الدين والمجتمع والانسان في لحظة ما وفي مكان ما، وبما يوثق في كل فصول التاريخ الذي سيكتب لاحقا ان أمة المسلمين هي بالقطع أمة مبدعة مجددة متسائلة متواثبة.

علي عبد الرءوف

الملاعب العربية من ساحات معارك إلى ملتقيات إنسانية

تأمل هذه المفردات "الكتيبة ، السحق، انهمار الصواريخ، القذائف، ترسانة الاسلحة". هذه المفردات ليست من تقرير يصف الصراع المسلح في دولة ما ولكنه يصف احداث مباراة في كرة القدم. الرياضة هي بوابة السلام والمحبة والتسامح بين البشر، وهي لغة عالمية مفهومة في كل بقاع العالم. الرياضة واحدة من ركائز صياغة الوعي الإنساني، والفكر الراقي، وهنا يأتي دور الأماكن الرياضية في تغيير حال الإنسان العربي أخلاقيا وإنسانيا، وفكريا وثقافيا نحو الأفضل. ومن منظور التصميم فقد تبين أن هناك علاقة وثيقة تعتمد على فكرة الصياغة الذهنية أو الإدراك الذهني للمكان والحدث. ولذا نريد صياغة رؤية ذهنية تبدأ في عقل المشاهد والمتفرج من عامة الجمهور. ويعتمد هذا المنظور على أطروحات تصميمية وتخطيطية جديدة تتجاوز الفكرة البلاغية النمطية التي تتكرر في الإعلام الرياضي على أن الملاعب هي ساحات للمعارك، وتنادي

بتحولها إلى ملتقيات إنسانية اجتماعية ثقافية. هذا الصياغة الذهنية البنائية تحول الملاعب إلى بوتقات لتفاعل البشر في ود وألفة، وبالقطع ستساعد في نشر رسالة تتجاوز فكرة التعصب، وتنطلق إلى آفاق من التواصل الاجتماعي الإنساني الراقي الذي تمثله الرياضة في صورتها المثلى.

لم تعد المدينة المعاصرة تحاور سكانها المقيمين بها فقط، وإنما تمتد لتحاور العالم في عصر القدرة الغير مسبوقة على التواصل. وجزء مهم في هذا التواصل هو الانتقال إلى مرحلة استقطاب الأخر من خلال القدرة على استضافة أحداث فنية ورياضية وثقافية تعمق فكرة التواصل والرغبة في الانفتاح على العالم. كما تؤكد على القيمة العالمية للمدينة، وتعيد صياغة عمرانها وعمارتها لتتمكن من لعب هذا الدور العالمي. ويكفي ان نرصد هنا الحدة التنافسية بين مدن العالم لاستضافة الأحداث الرياضية العالمية مثل كأس العالم او الدورات الاوليمبية. فالموثق ان المدن التي سعيت جاهدة إلى هذا المستوى من التنظيم وحصلت عليه، غيرت تقريبا من مستقبل المدينة، وتحولت أحيانا من مدينة راكدة إلى مدينة نشطة تستقطب الاستثمارات من كل أنحاء العالم في دورة اقتصادية مذهلة الحجم لم تكن لتشارك فيها لولا النشاط الرياضي العالمي الذي تمكنت من استضافته.

بسبب ما تعانيه الكثير من الدول العربية من مشاكل تنموية واقتصادية واجتماعية وإحساس لدى العامة بحالة من الانهزام المتتالي في بعض مقومات الحياة

الأساسية كالمساهمة في الصناعة او البحث العلمي او المخترعات او نهضة التعليم او الاكتشافات في المجالات العلمية والطبية، فان الكثير من الشعوب العربية لا تجد طعما للانتصار إلا في الملاعب الرياضية. وقد تيقن الكثير من نجوم الإعلام الرياضي العربي المكتوب والمشاهد إلى هذه الحقيقية واستثمروها في بناء صورة ذهنية راسخة في عقول الشعوب تصور التنافس وخاصة في كرة القدم على انه معركة الانتصار فيها هو انتصار يلغي اي نوع من الهزائم الاخرى على الأصعدة الأخرى كالتعليم والصحة وخلافه. الجدير بالذكر أن هذه الحالة ترسخ في ذهن الإعلاميين فكرة ان الملعب هو ساحة معركة، وان هذه الساحة تستخدم فقط في حالات النزال ثم يتوقف استعمالها إلى حين معركة أخرى بين فريقين آخرين. ويستمر الإعلام بسبب رسوخ هذه الحالة في وصف اللقاءات الرياضية بتعبيرات عسكرية حربية تكثف حالة التعصب والتنافسية السلبية بين اللاعبين والجماهير. بل إن بعض الصحفيين لا يصف اللاعبين بالفريق وإنما بالكتيبة مؤكدا فكرة الصراع العسكري الحربي.

هذا النوع من التغييب العقلي يتطلب مواجهة ليس فقط بتطوير وعي الإعلاميين الرياضيين والمعلقين على الفعاليات الرياضية، ولكن ببناء صورة ذهنية مخالفة عن مكان التنافس، ونوع الأنشطة التي تمارس به والأدوار التي يلعبها المكان حتى في الأيام التي لا يشهد منافسات او مباريات. هذه الصورة الذهنية هي المرتكزة على أن الملعب هو في جوهره سياقا حضاريا حدائقيا صمم وبني من اجل الناس حتى يلتقوا ويتعارفوا ويطوروا سلوكهم الإنساني الراقي، وليس دفعهم

إلى صراع رخيص يفقد الرياضة معناها الاكبر في غرس قيم النبل والشرف والخلق الحميد.

القيمة العمرانية الاجتماعية للفراغات الرياضية

تمثل الملاعب الرياضية وخاصة التي تستوعب الأحداث الأكثر شعبية مثل ملاعب كرة القدم والعاب القوى والبيسبول وكرة القدم الأمريكية حالات فريدة من التركيب المعماري والعمراني. نحن أمام مناطق ذات مساحات وتجهيزات هائلة وعادة ما تكون مرتبطة بوسائل النقل العام بالإضافة إلى توافر العديد من مسطحات انتظار السيارات المخصصة للجماهير والزوار. وبالتالي نحن أمام حالة متميزة ولكنها للأسف لا تخدم المجتمع إلا فقط في حالة إقامة الفعاليات او المباريات والتي لا تزيد عادة، اثناء الموسم الرياضي، عن مرة أسبوعيا. والأكثر خطورة أنه متى توقف النشاط الرياضي السنوي، تحولت هذه الأماكن المتميزة إلى أماكن شبه مهجورة. الطرح البديل، هو أن جزء من تغيير هذه الحالة يتوقف على إعادة صياغة الدور الاجتماعي والثقافي والإنساني للملاعب الرياضية والتعامل مع الملعب الرياضي كملتقى إنساني. وعن طريق مناهج العمارة والعمران يمكن ان يتحول الملعب الرياضي من ساحة حرب، كما يتم التسويق له في الخطاب الرياضي الإعلامي إلى مقصد يومي لإفراد المجتمع يمارسون كل أنشطتهم مما يكون علاقة انتماء متميزة تسقط فكرة التعصب وتستبدلها بارتباط عميق بين الإنسان والمكان يتجاوز اي محاولة لفرض فكرة الصراع البغيض.

إعادة صياغة التصور المعماري والعمراني للملاعب الرياضية

الطرح البديل هو أن جزء من تغيير هذه الحالة يتوقف على إعادة صياغة الدور الاجتماعي والثقافي والإنساني للملاعب الرياضية. فعن طريق مناهج العمارة والعمران يمكن ان يتحول الملعب الرياضي من ساحة حرب، كما يتم التسويق له في الخطاب الرياضي الإعلامي إلى مقصد يومي لإفراد المجتمع يمارسون كل أنشطتهم مما يكون علاقة انتماء متميزة تسقط فكرة التعصب وتستبدلها بارتباط عميق بين الإنسان والمكان يتجاوز اي محاولة لفرض فكرة الصراع البغيض. نقدم بعض المقترحات للتحولات المعمارية والعمرانية التي يمكن إتباعها في تصميم الملاعب في الدول العربية لتحويلها من ساحات حروب رياضية محدودة الاستعمال إلى ملتقيات اجتماعية ثقافية ترفيهية رياضية صديق للبيئة مزدهرة بالحياة والتفاعل الإنساني. من أهم هذه المقترحات ما يلي:

الملعب الرياضي كحديقة عامة.

الملعب الرياضي كساحة احتفالية.

الملعب الرياضي كمقصد للتسوق والترفيه.

الملعب الرياضي كنطاق للتعلم.

الملعب الرياضي كحيز للمهرجانات الثقافية.

الملعب الرياضي كساحة رياضية للمجتمع ككل.

ان تحقيق الحد من التعصب في الملاعب العربية ليس فقط هدفا يجب ان يشغل بال العاملين في الإعلام الرياضي والصحافة المطبوعة والرقمية، وإنما هو مشروع حضاري متكامل يلعب فيه أيضا أسلوب تخطيط وعمران وعمارة الملاعب والخدمات الرياضية دورا هاما. أهمية التأكيد على إن كل فرصة للذهاب إلى الإستاد الرياضي هي فرصة لمقابلة الأخر والتعرف على إنسان جديد، وهي أيضا فرصة للتعلم واكتساب المعارف من خلال أبنية جديدة مثيرة للخيال والتساؤلات المبدعة. ان الملاعب الرياضية الكبرى في المدن العربية يجب ان يفعل دورها اليومي والأسبوعي والشهري والموسمي، ليس فقط من خلال المباريات الرياضية ولكم من خلال تفعيل كل الأدوار الأخرى التي تساهم في تجاوز صورة الملعب كساحة للمعارك وإعادة صياغتها وتقديمها كصورة جديدة تؤكد ان هذه الملاعب هي ملتقيات إنسانية يستفيد منها كل أفراد المجتمع بمختلف فئاته وقطاعاته.

علي عبد الرءوف

مكة المكرمة والوردة الحمراء والساعة العملاقة

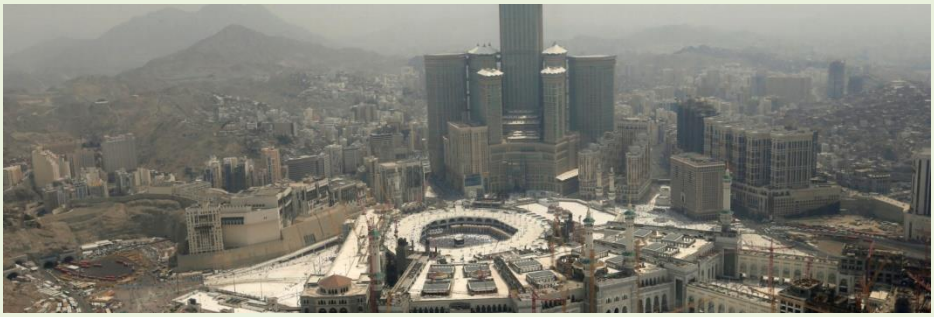

لم يستوقفني ويؤلمني وانا أُعد دراساتي لكتابي المعنون "من مكة الى لاس فيجاس: اطروحات في العمارة والقداسة" الصادر في القاهرة، اكثر من إعلان فندقي به صورة سرير ابيض بشراشف حريرية عليه وردة حمراء كُتب اسفله تمتَّع بشهر العسل وانت مُطل على الحرم!! صدمتني فكرة استغلال الاطلال على الحرم المكي ليس فقط لتبرير دفع مئات بل الاف الدولارات لقضاء ليلة واحدة، بل تصعيد الاستغلال الى التحول بعيدا عن الهدف الروحاني الى الترويج الفندقي الفج لجناح العرائس المطل بنوافذه العملاقة من ارتفاع شاهق على الكعبة التي تقزمت امام هذا العملاق الخرساني البغيض المسمى برج الساعة. لقد كان دافعي للحرص على نشر هذا الكتاب، وكما وثقت في صفحاته الاولى عدة صدمات متتالية اولها حين زرت مكة ورأيت ما أصابها من تحول وتشويه بحيث كادت المدينة الروحانية المقدسة تتلاشي، ليحل محلها مدينة عالمية

ذات مباني لاس فيجاسية باهرة الأضواء. مدينة تنسجم أكثر مع الهوية المتعولمة التي تسعى اليها مدن خليجية اخرى مثل دبي وأبو ظبي وتنسى انها مدينة الحجاج وقبلة المسلمين من كل انحاء العالم. والصدمة الثانية: حين سافرت لدراسة عمران وعمارة مدينة لاس فيجاس الأمريكية، ولاحظت مدى التشابه والتقارب بين الطبيعة المعمارية والتنموية لكلا المدينتين، بما في ذلك نسق الهدم هو الحل. ويتعاظم تأثير الصدمة عندما ندرك أن لاس فيجاس ليست مجرد مدينة أمريكية، ولكنها تسمي (مدينة الرذيلة) في مقابل (المدينة المقدسة) مكة. أما الصدمة الثالثة كانت عندما زيارتي دولة الفاتيكان، ولاحظت بل ووثقت التناسق المعماري والحفاظ على الهوية، واحترام الكنائس والمقر البابوي، والإصرار على جعله أهم وأكبر المباني، وصاحب المركز المسيطر المرتفع في النطاق البصري للمدينة. وتبقى الصدمة الرابعة التي تخص مدينة القدس، الاكثر مدعاة للحزن والألم. برغم وقوعها تحت الاحتلال الإسرائيلي وبرغم المحاولات الدائمة لتهويدها، إلا أنه لم يصبها ما أصاب مكة من تشويه معماري وعمراني، وما زالت القدس تحافظ على هويتها المعمارية، وشخصيتها الفريدة، وعبقها التاريخي، الذي يبدو جليا في وضعها الراهن الموثق في ادبيات متعددة.

لقد قدم الكتاب تحليلا نقديا متكاملا للتنمية العمرانية والمنهجية التخطيطية للتطورات الحادثة حول الحرم المكي، اطهر واقدس بقاع جموع المسلمين. وركز الكتاب على فهم العلاقة بين التطور العمراني وبين الحفاظ على الاجواء المقدسة

والعبق الروحاني للمكان. كما ناقش التجربة المعاصرة للحجاج، فحينما توجه نظرك من صحن الكعبة إلى العمران المحيط بها فلا يدهشك المشاعر المقلقة وسلبية التجربة البصرية، فأنت محاط ومحاصر بالعمالقة الخرسانية الزجاجية من ناطحات السحاب التي تتناسى تمامًا بمن تحيط وما هي قداسة وروحانية من تتطاول عليه بمكعباتها الخرسانية. كما أختبر الكتاب اساليب التنمية العمرانية المتبعة وسيطرة رأس المال التي تتجاوز عن الحفاظ على المقدس في سبيل الربحية المبالغ فيها. لذا نوقشت مشاريع تطوير وتوسعة الحرم المكي الشريف، في إطارٍ أوسع من التأريخ المعماري والعمراني للمدينة الإسلامية عمومًا ومدن الخليج العربي في نُسخها المعاصرة خصوصًا، مع اهتمام خاص بالتاريخ المعماري والعمراني لمدينة مكة المكرمة، وبيان منزلتها لدى المسلمين، ثم توجيه النقد البنَّاء لمشاريع التطوير والتوسعة تلك، وإيضاح عيوبها، وإيجاد بديل لِها، يُسهم في تيسير الحجّ على عموم المسلمين، ويحفظ قدسية المدينة، وينقذها من تغوُّل الرأسمالية المادية القاسية على بنيتها الحديثة.

في مشروعات التطوير في الحرم المكي نتوقف امام اشكاليتين فارقتين، الأولى هي عملية الهدم والتعدي على الأماكن التاريخية والأثرية التي تحرم المدينة من أصالتها وصلتها بالماضي والتراث الإسلامي. إذ أنه تحت دعوى التوسعة والتطوير تم هدم قلعة أجياد العثمانية، وبيت السيدة خديجة والكثير من الكنوز المعمارية والتراثية؛ مما أفقد المدينة الكثير من عبقها وأصالتها وروحانيتها كما محيت فصول من تاريخ مفعم بجهاد اوائل المسلمين وصحابة الرسول وعائلته.

أما الاشكالية الثانية فهي طبيعة الطرز المعمارية للمباني التي حلت مكان المباني الأثرية القديمة من حيث الضخامة المبالغ فيها، والمقياس العملاق اللانساني والتطاول الذي شوه الطبيعة المعمارية للمدينة خاصة أبراج الساعة التي شوهت النطاق البصري للكعبة وسيطرت على مجال رؤية من يطوف حولها. المذهل ان يبرر برج الساعة على انه انجاز اسلامي معاصر لان الساعة العملاقة بنيت على طراز ساعة (بج بن) البريطانية ولكنها أضخم منها ست مرات!! واصبح المشهد الحالي مشهدا مؤلما تتضاءل معه الكعبة تماما وتصبح على هامش المجال البصري بجوار الوحش العملاق الذي يطل عليها، وتتأكد هذه الفكرة حينما نعلم أن ارتفاع برج الساعة يصل لـ 600 متر بينما ارتفاع الكعبة لا يتجاوز الـ 14 مترا. والمثير أننا في خضم نشوتنا بهذه الإنجازات الأسطورية العملاقة الضخمة حول الكعبة لم نسأل أنفسنا السؤال الأكثر صدقًا: ما معنى كل هذا وأنا في بيت الله؟ ما معنى كل هذا وأنا في أقصى لحظات ضعفي وقلة حيلتي لا يسترني من العراء إلا قطعة قماش بيضاء يلبسها الغني والفقير على السواء؟ أن رحلة الحج التي تعكس في جوهرها طقوس تذلل وتجرد وتساوي بين جميع المسلمين المتوجهين نحو مكة المكرمة أصبحت مثال صارخ على طبقية المسلمين حتى في أقدس أماكن عبادتهم.

إن فلسفة الحج افي طرحها العميق، وما تدعو إليه من التواضع والمساواة والزهد في الدنيا والشعور بفقد كل ما هو مادي حتى الملبس والعطر مقابل الاقتراب من

المقدس الابدي. ومن هنا تأتي أهمية وجود مشقة نسبية في رحلة الحج تهيئ الحاج للحالة الروحانية التي يعيشها خلال أداء مناسك الحج، حالة من الانقطاع عن الدنيا والعالم وترك الزينة والبهرجة والاتصال بالله تعالى وحده لا شريك له والتوجه له في كل حركة أو همسة أو إيماءة. من المهم ان ندرك عمق العلاقة بين العمارة والعمران وبين طبيعة المكان وقدسيته، وحرصها على صياغة المباني والتشكيلات الفراغية التي تهيئ الإنسان لينغمس في الحالة الروحانية ومن هنا تستحق ان تسمى عمارة مقدسة تحترم الارض المقدسة. ألا يجدر بنا ان نتكاتف معا كمسلمين ليس من اجل بناء برج جديد في مكة او وضع وردة حمراء اخرى على سرير مطل على الحرم او نقلد ساعة بريطانية، ولكن ان نحول مكة المكرمة الى محمية روحانية إنسانية بكل دلالات هذا التصور ومضامينه المستدامة الراقية.

متى يعلنون وفاة الفراعنة؟

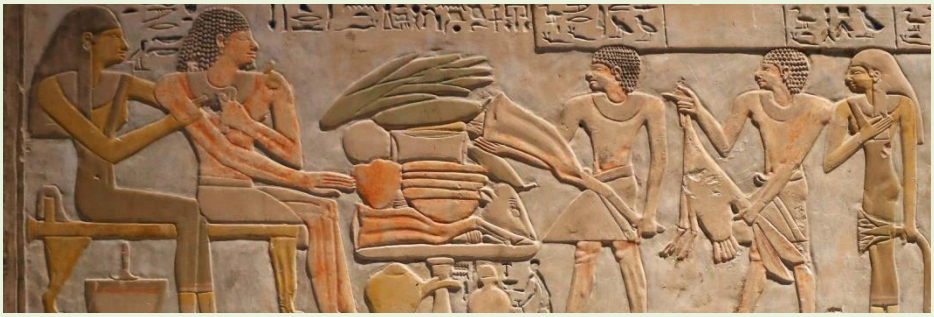

مآزق الهوية

بداية نعتقد أن التناول النقدي لموضوع الهوية الجماعية لأمة لا يقلل من الوطنية، بل هو حرص عليها. كما انه يعبر عن رغبة في إحياء الانتماء الحقيقي وليس المرتبط بأمجاد ماضي سحيق ليس من الفطنة أن نتغنى به ونسقط الحاضر والمستقبل من أنشودتنا. ومن ناحية أخرى ننبه ان الأمة العربية والإسلامية استهلكت جزء كبير من طاقاتها في طرح تساؤلات عن ماهية الهوية؟ ولمن ننتمي ومن نحن؟ وكيف نحدث حاضرنا دون أن نخسر أمجاد الماضي؟ كما حاصرتنا مصطلحات الأصالة والمعاصرة والثابت والمتحول والمحلي والعالمي والمرتبط والمنفصل حصارا خانقا اعتقد ان أهم تداعياته يتجلى في حالة الفقر الإبداعي العام. تبدو الإشكالية واضحة في معظم البلاد العربية بسبب انتمائها

العقيدي الى الديانة الاسلامية. ولذا فالسائد ان الهوية الإسلامية هي النموذج الأكثر قبولا في مشروع البحث عن الذات في العالم العربي ومن الناحية المعمارية والعمرانية فلم نندهش حين أثرت تلك المرجعية تأثيرا كاسحا على التوجهات المعمارية والعمرانية في الثمانينيات وأوائل التسعينيات. وتطور الأمر بصورة أكثر درامية في العقد الأخير وخاصة مع أطروحات العولمة وتفسيراتها في السياق العربي والإسلامي والرضا بتصور العولمة بكل أبعادها كوحش يتربص بثقافتنا وعاداتنا وتقاليدنا.

التاريخ والمعمار

تتعقد الإشكالية حين نتحول إلى بلد ذو حضارة متراكمة ومركبة مثل مصر وعاصمتها العريقة القاهرة التي تشكل تبعا لآراء أهم مؤرخين العمران مع اسطنبول وروما أكثر المدن تعقيدا في طبقاتها التاريخية. ليس هناك ضررا في الرغبة المخلصة للمحافظة على عنصر التاريخ، ولكن كل الضرر في سطحية المحافظة وتجاهل عامل الزمن وضرورة الاستمرارية. فالعمارة هي أسلوب لفهمنا لأنفسنا وللعالم من حولنا.

استهلاك الرمز والتقاليد

يمثل الطرح الفرعوني ملجأ أمنا في زمن تعاني فيه الدول العربية والإسلامية ومصر بينهم من هزائم متتالية فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية. فالحقبة الفرعونية تذكر بل وتخدر المصريين خدرا لطيفا يدخلهم في عوالم المجد

والانتصار والسيطرة على العالم التي مضى عليها آلاف السنين ولكن ما الضرر في الاستدعاء المستمر لهذا الماضي السعيد وخاصة ان ظروف الحاضر لا تقترح قرب عودته في المستقبل المنظور!! دعنا نتأمل كيف استهلكت الفنون ورموز الحضارة الفرعونية في مشاركتنا المصرية في المهرجانات والمعارض العالمية والمنتديات الدولية فجناحنا في بورصة برلين للسياحة فرعوني التصميم، وكذلك في القرية العالمية بمدينة دبي وحتى في معرض السجاد العالمي في هانوفر. حاول ان تتصفح أي موقع الكتروني رسمي مصري للوزارات او المؤسسات ولا تندهش من زهرة اللوتس وأوراق البردي التي تزين المواقع . لماذا لا نستمع إلى المفكر ادوارد سعيد قائلا الحضارة الفرعونية مثل موسيقى بيتهوفن أصبحت ملك العالم كله. أنا بالقطع لا أدعو إلى التنصل منها ولكني أحث الجميع على تجاوزها تجاوزا بناءً يحفظ قيمتها ولا يحولها إلى مسخ تجاري مبتذل. وفي الوقت ذاته فان التجاوز قد يحفزنا إلى تقديم مساهمة معاصرة في العالم المتعولم الذي نعيش خلاله اليوم.

الفاحص المدقق للتغيرات الحادثة في العمارة المصرية في العقد الأخير يلحظ عودة غير مفسرة إلى خيار الهوية الفرعونية كمرجعية تشكيلية وبصرية لبعض أهم المشروعات المعمارية والعمرانية وخاصة المباني العامة والمؤسسية والحكومية. وهو ما يثير جدلا حتميا ، فمرجعية المبنى الخاص مزاجية شخصية آما مرجعية المبني العام وخاصة الرسمي فهي تعبير عن توجه دولة او مؤسسة

او سياسة عامة . والراصد لتحولات العمارة المصرية المعاصرة منذ بداياتها في أوائل القرن الماضي حتى العقد الأخير يتضح له تقلب المرجعية التشكيلية في النتاج المعماري من الحداثة إلى الإسلامية إلى مابعد الحداثة كان منطقيا وارتبط بمتغيرات محلية او إقليمية او بتوجهات فردية شخصية نابعة من تأثر المعماريين بتعليمهم وإعدادهم الغربي. ولكننا أيضا نرصد مباني مثل ضريح الزعيم الوطني سعد زغلول بطرازه الفرعوني ومحطة القطار الرئيسية بمدينة الجيزة وغيرهم تعكس رغبة قومية في استخدام المبني العام كمجال لتأكيد الهوية المصرية والوطنية التي لا تقبل المنافسة وهي الهوية الفرعونية ، وخاصة في إطار زمني كانت مصر تحاول خلاله وخاصة على المستوى السياسي تأكيد زعامتها العربية والإقليمية.

مشهد العودة للعمارة الفرعونية بدأ مع واحدة من اهم المسابقات المعمارية التي كان موضوعها الوصول إلى أفضل تصميم للمقر الجديد للمحكمة الدستورية العليا في موقع متميز بإطلالة رائعة على نهر النيل جنوب القاهرة. قام المتسابق الفائز بتغيير جذري للطرح التصميمي الأصلي الذي اختارته لجنة التحكيم ليتحول من تركيبة معمارية تفكيكية إلى توليفة فرعونية مسرحية وسبب هذا التحول كان رغبة معلنة من رئيس المحكمة في هذا الحين في ان يكون للمحكمة طراز كلاسيكي مثل المحاكم الانجليزية وحيث ان طراز الأخيرة هو غالبا كلاسيكي أوربي فمن المنطقي ان يكون طراز المصرية كلاسيكي فرعوني !! وبديهيا ان يطيع المعماري خشية ان يخسر فرصة لا تتكرر لربط اسمه بمشروع

هام ومؤثر معماريا وعمرانيا في تشكيل مدينة هامة كالقاهرة. وبصرف النظر عن خلفيات المشروع وتدخل الغير مختص وتنازل المعماري عن فكره التصميمي إلا أن المشروع بعد بنائه وظهوره كتركيبة بصرية خارجة عن المعتاد والمكرر ولد موجة جديدة من الحنين الى العمارة الفرعونية والرضا عنها كأكثر الإجابات منطقية للتساؤلات عما يعبر عن الهوية المصرية. تأمل ايضا مشروع القرية الذكية وهو المشروع الذي يهدف الى إدخال مصر حقبة المعلوماتية ويحتوي المشروع مجموعة من المقرات لشركات الاتصالات والمعلومات ولكننا نتوقف أمام مبنى وزارة الاتصالات فالمدهش انه مع كل التطورات الحادثة في مجال المعلومات وإمكانية استخدام المبني كأداة معرفية تتعاطى مع العصر وكذلك إنتاج تجارب فراغية تحفز قدرة المستعملين والزائرين فإننا نفاجئ بتشكيل المبنى الذي انتهى أيضا الى حوار ساذج بين تشكيل فرعوني سطحي قشري مع مستويات راسية من الحوائط الزجاجية يعلوها جميعا كورنيش فرعوني ثم أهرام صغيرة.

اعرف إنني اقتربت من حيز شديد الحساسية وقد أتهم بالانفصال والانفلات وغيرها من التهم الفضفاضة التي تواجه العقل الناقد في عالمنا العربي، ولكنني ادعوكم وأدعو المعماريين المصريين ومتخذي القرار وخاصة في بناء المبنى العام الرسمي إلى تأمل ثلاث إشارات رئيسية المحها تومض بشدة في مشهد عمارة الفراعنة المعاصرة :

- إن انتقاء الحضارة الفرعونية كحقبة أساسية لتشكيل المرجعية البصرية للعمل المعماري المعاصر في مصر هو اختيار ظالم لبلد تتعدد وتتعقد به الحقبات التاريخية الثرية والمتداخلة.
- من الناحية الفكرية الفلسفية فان التعمق في فهم وتفسير حضارة الفراعنة وعلاقات الملوك والآلهة بعامة الشعب قد يستنكر استخدام لغتهم التشكيلية في مباني ذات دلالة رمزية مجتمعية هامة مثل المحكمة الدستورية او مشروعات التنمية.
- ان تعامل المعماريين مع الحقبة الفرعونية هو طرح شديد السطحية وهو تقليد مباشر وساذج لمفردات جامدة مثل الأعمدة بطرزها المختلفة دون اى محاولة للتجديد او الإبداع او حتى الفهم العميق لقيم تشكيلية تصميمية يمكن إعادة صياغتها او توليدها بصورة مبدعة لإنتاج تجارب فراغية وبصرية غير مسبوقة. الحادث الآن هو مجرد تزييف شكلي بعمق الجلد فقط لا يخترق العظام ولا يتخلل الفراغ المعماري فنحن بالقطع أمام ملصقات فرعونية وليس عمارة جديدة ملهمة من عبقرية العمارة الفرعونية.

□

يلا نلعب عشوائي :افلاس الرسمي وثراء العشوائي

تأملات في سردية العمران المصري المعاصر

لا اريد ان اقدم طرحا عاطفيا يستدعي مشاعر الشفقة نحو القطاعات الافقر والاكثر احتياجا في المجتمع المصري، كما انني لا اريد ان اقدم صورة وردية رومانسية يوتوبية عن عالم العشوائي والمهمش في عمران مصر. ولذا يبقى محور تركيزي، هو مدى امكانية استيعاب العشوائي كقيمة يمكن تحليلها والتعلم منها. ونتساءل: هل كل ما تقدمه الجماعة الانسانية الشعبية سلبي فوضوي غير قانوني؟ وعلى الجانب الاخر، الا يقدم الرسمي اطروحات عشوائية بامتياز؟ لا يقف ارتباك مشهد فهم معنى وقيمة العشوائية في عمران وحياة المجتمع المصري عند ممارسات محددة، ولكن يمتد الى مشروعات كبرى مثل اهمية الاحتياج الى عاصمة جديدة او مشروع تطوير مثلث ماسبيرو الذي عقد من اجله مسابقة

تخطيطية عالمية. ولذا تأتي اهمية رصد واختبار ما يمكن وصفه بالملامح العشوائية الشعبوية الايجابية وبالملامح العشوائية الرسمية السلبية. وقد يكون من الملائم ان نعيد تعريف ابعاد علاقتنا كمجتمع بما يوصف بالعشوائي. ومن خلال اعادة تعريف وفهم هذه العلاقة، لا يرفض العشوائي كل الرفض ولا يقبل كل القبول، ولكن المهم الا يتحول الى لعبة او موضة او اداة للتهكم. ودفع نحو مزيد من العزلة والتهميش للفقير والعفوي والتلقائي بل والايجابي في خلق حلول لمشاكل تجاهلتها الحكومات او افلست في تقديم حلول لها.

المشهد المعاصر

يمكن رصد ملامح عشوائية في التفكير او القرار التنفيذي الرسمي كما يرصد فعل ايجابي لا رسمي في عدة مستويات ابرزها ثلاث يركز عليهم المقال. وهذه المستويات تبدأ من رصد ما يمكن ان يسمى "العشوائية الرسمية" ثم "عشوائية العقل والانتقاء" مبلورة في اطروحات استشاريين عالميين، واخيرا "العشوائية الايجابية" التي تطرحها الجماعات الانسانية المهمشة الخارجة عن الاطار الفكري والتنموي للدولة.

ملامح العشوائية الرسمية

نعني بالعشوائية الرسمية نوعية الافعال والتوجهات التي يصعب تفسير منطقها، كما يصعب تتبع مراحل اتخاذ قرارات لتفعيلها. تبرز في الخمس سنوات الاخيرة حالة ميدان التحرير، ومحيطه الاكبر للدلالة على حالة عشوائية رسمية بامتياز.

لاحظ بداية عشوائية وسذاجة التعامل مع ميدان التحرير وخاصة فراغه الاوسط عندما بني على عجل ما سمي بالنصب التذكاري لشهداء 25 يناير و 30 يونيو. تصميم ساذج وسطحي التعبير ينفذ في ساعات وعندما ينقد من اهالي الشهداء وخبراء العمران وتنسيق المواقع، تفسره المحافظة بانه ليس نصبا تذكاريا ولكنه حجر اساس لنا سيكون لاحقا نصبا تذكاريا. ننتقل من دائرة الميدان الى محيطه العمراني، تأمل هدم مبنى المقر القديم للحزب الوطني دون تحديد رؤية واضحة لأسباب الهدم او ما سيتم عمله في موقع المقر بعد هدمه. ثم هدم احد اهم مباني الجامعة الامريكية وهدم السور الخارجي للجامعة المطل على الميدان بتوثيقه الجرافيكي لشهداء ثورة 25 يناير. تأمل ايضا دعوة محافظ القاهرة في بداية يناير 2016 لإخلاء مجمع التحرير، وكذلك لاحظ ضمور دور مسجد عمر مكرم والموت الكامل لمسابقة تطوير الميدان التي تبلورت بعد الثورة. كل هذه المشاهد توثق غموض وعشوائية مصير الميدان وسياقه العمراني.

ملامح العشوائية الاستشارية: عشوائية العقل والانتقاء

مسابقة ماسبيرو: توابل عشوائية معمارية

نلمح في سردية هذا المشروع ملمحين جديرين بالطرح، الاول وتظهر فيه بوضوح معاني اعلى درجات العشوائية الرسمية عندما يتقدم وزير الاسكان المصري بتصريح غير قابل للتحقيق يعد فيه بان التطوير الجديد للمنطقة لن يضر ولو حتى مواطن واحد. في الوقت ذاته فان المكاتب الاستشارية اشتركت

بصورة واعية او لا واعية في تقديم تصورات معمارية وعمرانية تستغل فيها البعد الانساني للمواطن المصري البسيط المهمش بصورة هزلية او ساخرة او سطحية، وهذا هو الملمح الثاني الجدير بالنقاش. تأمل مثلا تصورات نورمان فوستر والتي استخدمت فيها صورة لمصري من اصول ريفية بجلبابه البسيط، وهو يعد الشاي على سطح احد الابنية التي يقترحها الاستشاري. او تأمل طرح راسم بدران الذي صاغ غابة من الاعمدة الخرسانية والطوب الاحمر المكشوف وكأنه يردد ما يرتكب من جرائم حول القاهرة تغتال جمالها وانسانيتها. طرح نقدي من بدران ولكنه سطحي لأنه لا يمكن ان نقدم نقدا تحذيرا من خلال طرح معماري عمراني هزلي دون ان نعي ان هذا المشروع يؤثر في حياة عشرات بل مئات الالوف. لا يمكن ان نستخدم حياة الالوف في تجربة نقدية تشكيلية. العقل الواعي الناقد يفرق بعمق ما بين سياقات النقد التنظيري وبين سياقات التطبيق والتنفيذ لمشروعات حقيقية تبقى في النسيج العمراني والاجتماعي والبصري والاقتصادي للمدينة لعقود طويلة.

ملامح العشوائية الايجابية

من لحظة امتلاك الشعب المصري لميدان التحرير في ثورة 25 يناير، تولدت حالة فريدة في العلاقة بين المجتمع والفراغ العمراني والاحتياج الانساني. هذا التداخل انتج مجموعة من الانساق العمرانية الاجتماعية اللارسمية الفريدة التي اثرت الحياة، وعوضت الناس عن عقود من التهميش. تأمل مثلا حلقات الشاي على كباري مصر التي تطورت الى جلسات متكاملة تعوض المصريين عن فقد

الفراغ العام من منظومة المدينة العمرانية والانسانية. نرصد ايضا جاليريهات الحوائط التي تستوعب ابداعات فنانين متواضعين لا تتسع صالات العرض الانيقة في المتاحف لمثل هؤلاء او لأعمالهم. تأمل تجمعات تجار الشوارع واصحاب عربات المأكولات لخلق اسواق صغيرة مفعمة بالحياة تستجيب بأجوائها واسعارها لقطاع كبير من المجتمع لا ينتمي للكافيه او للمول. ونتوقف امام الوصلات الحياتية مثل الكباري المعدنية التي شارك المجتمع في تمويلها وبنائها حتى يتمكن الاهالي من العبور الى الاحياء السكنية المهمشة التي نمت على اطراف الطرق الدائرية. تأمل هذا الفعل الذي نسميه عشوائي ولكنه في الواقع يعبر عن احتياج مجتمعي. هذه الكباري المعدنية عفوية التصميم، بدائية التصنيع، ذاتية التمويل والمخالفة في نظر الحي والمحافظة، هي الوسيلة الوحيدة لربط مجتمع انساني مصري مهمش ومنسي مع محاور الحركة التي سيجد عليها وسائل المواصلات اللارسمية التي ستذهب به الى مقر عمله او دراسته.

يبدو ان التعامل مع المناطق المهمشة لا يمكن ان ينجح من خلال اتباع نفس منهجية وميكانيكية التعامل مع مناطق التطوير العقاري المتكررة. ان ما وثق من خلال تجارب امريكا اللاتينية او جنوب افريقيا يبلور اهمية وجود مدخل مبتكر لا يعتمد على فوقية الدولة والاستشاري وتعاليهم وانفصالهم عن المجتمع المحلي. لقد ثبت ان المسابقات المعمارية والعمرانية لا تصلح بسبب قصور علاقتها مع المجتمع في بلورة حلول عادلة. لقد ثبت ان المدخل الافضل، اذا كان هناك

حرص حقيقي على المجتمع، يعتمد على المشاركة الكاملة ومصداقية الحرص على استمرار المجتمع في نطاقه وبيئته ونسيجه المكاني. ان ترحيل بعض المصريين من مكان وجودهم لعقود، يمزق النسيج البشري والعاطفي والمجتمعي ولا يعوضه صرف تعويضات الحكومة الهزيلة. بل انه يؤكد غياب مفاهيم العدالة في العمران ويخلق بيئة خصبة للحقد بل والارهاب.

لن تقدم صورة الفلاح الذي يعد الشاي على سطح عمارة في رسومات نورمان فوستر او حوائط الطوب الاحمر في مجسمات راسم بدران، عزاءا للألاف بل الملايين الذين سندفعهم دفعا الى اطراف الصحراء يهيمون على وجوههم في اشباه اماكن واشباه مجتمعات وأشباه حياة ثم نلومهم ونعاقبهم حضوريا وغيابيا على حقدهم وعدوانيتهم وتطرفهم.

سينمائية المدينة: حالة العلمين الجديدة وثلاثية دبي المظلومة

منذ تغير النظام المصري بعد أحداث 3 يوليو 2013، تضافرت جهود لخلق حالة من الفرح الخيالي، والانتصار الأسطوري والتبشير بحالة من التفوق اللامسبوق. هذه الحالة جُندت لصياغتها أدوات إعلامية ونخبوية. كما جُندت لها أيضا أدوات عمرانية ومنها الاعلان عن تخطيط مدن عالمية في الدولة المصرية المجهدة بإلتزامات اساسية لشعبها اخفقت في تحقيقها لعقود طويلة وبعد وعود بقرب الانفراجة والتحول الى حالة تعرف حاليا بتعبير "أد الدنيا". سيقدم المقال تحليل خاص لكيفية استخدام الصورة في تشكيل الوعي بإنجاز وهمي في حالة مدينة العلمين الجديدة.

عجز النموذج: دبي هي الحل

بداية يندهش المراقب من إقحام مدينة دبي كنموذج حاكم في الفكر العمراني التخطيطي في مصر طوال العقد الأخير. حقا تجربة دبي بها العديد من الجوانب الايجابية ولكن بها ايضا العديد من السلبيات، والأكثر أهمية هو التساؤل هل تصلح تجربة دبي للتطبيق في كل سياق آخر مهما أختلفت ملامحه وظروفه؟ لقد إستُخدم نموذج دبي في حقبة المخلوع مبارك حين قدمت مخططات مشروع "القاهرة 2050" والتي اتخذت من نموذج دبي مرجعية تخطيطية وبصرية. وكانت الخطوات النهائية لبدء تفعيل هذه المخططات على وشك الاكتمال متجاهلة حقيقية تهجير مئات الالاف من السكان المحليين الذي كان المخطط يعتزم التخلص منهم واستبدالهم بشريحة سكانية تليق بالتصورات الجديدة.

عودة النموذج في العاصمة الجديدة: دبي كلاكيت ثاني مرة

بعد ثورة 25 يناير، توقفت جريمة القاهرة 2050 ، ولكن بعد أحداث 3 يوليو عادت مرة اخرى ولكن مع تحول في السياق الجغرافي من ضفاف نيل القاهرة إلى عمق تجمعاتها الجديدة. فقد أعلنت الحكومة خلال فعاليات المؤتمر الاقتصادي الذي عقد في مدينة شرم الشيخ في الفترة من 13 -15 مارس 2015 عن مشروع بناء عاصمة جديدة. إستُخدمت دبي نموذجاً للمرة الثانية بهدف التأريخ لبداية استثمارية وتنموية غير مسبوقة في سياق صناعة البطولة والانتصارات الزائفة التي تفرغت لها الدولة. كانت كل الاضواء في هذا المؤتمر ، مسلطة على المشروع الذي اطلق عليه العاصمة الجديدة. هذه العاصمة ونظرا لإخفاق تخطيطي وتمويلي متوقع انكمشت بعد انسحاب الراعي الاماراتي. تخبط

المشروع ثم تقلص إلى حي اداري ثم ضعفت الاصوات التي تساند المشروع وتسألت عن ما هي جدواه ومصر تعاني على كل الاصعدة؟

سينمائية المدينة

ان المرء لا يندهش عندما يراقب مشاهد فيلم "مدينة العلمين الجديدة". ولكنه بالقطع يتيقن من براعة صياغة سينمائية المدينة، والتمسك العقيدي بنموذج دبي. من المهم هنا أيضا ان نتفق على تعريف لمصطلح "سينمائية المدينة"، فالتعبير يبشر بحالة اسطورية فانتازية ليس لها علاقة بأي واقع ولكنها، وكما تفعل أفلام بوليوود لفقراء الهند المطحونين أو كما تفعل أفلام عادل إمام لفقراء مصر المسحوقين، فأنها تستغرقك في حالة ذهنية مُخدرة مُغيبة وتُدغدغ مشاعرك وأنت تُمني نفسك بإحتمال أن تكون من سكان المدينة بصرف النظر عن يقينك أن المدينة من المستحيل أن تبنى والأكثر استحالة أن تكون أنت من سكانها.

الأبيض أولا: الاحتلال الذهني العقاري

دعنا نتأمل الفيلم الذي اعد للترويج للمشروع "مدينة العلمين الجديدة". الفيلم مدته تتجاوز الخمس دقائق بقليل، وأول ما يلفت النظر هم سكان هذه المدينة المصرية. كل المشاهد التي تحتوي على العنصر البشري تصدمك، حيث لا يوجد على الاطلاق من تقترح ملامحهم الانتماء لمصر. معظم أبطال الفيلم، رجال وسيدات واطفال بعيون زرقاء وشعور ذهبية. هذه النموذج مما يمكن ان نسميه الاحتلال

الذهني العقاري (السكان البيض) الذي بشرت به "سينمائية المدينة ". حتى الوصول إلى مشهد النهاية، لم يوضح لنا الفيلم ما هي مقومات تنافسية المدينة حتى مع إعتمادها على نماذج مرجعية مصدرها مدينة دبي. لم يقدم لنا الفيلم إجابة عن التساؤل الاكثر منطقية وهو لماذا يترك كل هؤلاء المحتلون البيض بعيونهم الزرقاء وشعورهم الذهبية وبشرتهم البيضاء الوردية، كل الاستثمارات والتسهيلات وأرقى الخدمات في دبي وتركيا وقبرص واليونان وجنوب ايطاليا وإسبانيا، ويحاصرون انفسهم في مدينة يصلون إليها عن طريق يطلق عليه أهل مصر "طريق الموت".

تبدأ أحداث الفيلم على متن الطائرة حيث تنقر سيدة انيقة بأصابعها على الكومبيوتر اللوحي فيظهر اسم العلمين باللغة الانجليزية وشعار المدينة المكتوب بالإنجليزية ايضا "تحقيق تنمية عمرانية مستدامة". تتعاقب المشاهد لنرى الفندق الفاخر وبهوه الفخم، ثم الشاطئ الممتد برماله الذهبية وبحيراته الصناعية. وتتصاعد الدراما مع لقطة من تحت الماء ليخت عملاق يتهادى متوجها الى مرسى اليخوت ثم فتاة رائعة تجلس على البار المفتوح تحتسي الكوكتيل الذي قدمه لها الساقي الأنيق. ثم لقطات متسارعة توضح مكونات المدينة واهمها دار الاوبرا والمتحف والمكتبة والجاليريهات والجامعة ومراكز الابحاث والمركز التجاري ومركز المدينة الذي يُستعرض من خلال لقطات واقعية من احد الولايات الامريكية بشوارعها وسكانها. وتنتهي المكونات بلقطة وعلى استحياء لمسجد قبيح التصميم، ثم أسرة اجنبية يبتسم طفلها أزرق العينين بينما العائلة

تحتسي الشراب. أما المشهد الختامي فهو مبهر، حيث ينتهي الفيلم بالفتاة الاجنبية المُغادرة الى بلدها الغربي، وهي تنظر من نافذة الطائرة على المدينة وكأن لسان حالها يقول هذه المكان تزوره ولا تقيم فيه.

بدو العلمين: الصوت الغير مسموع

في سياق الفيلم الذي أختفى منه المصريين، وخاصة اهل العلمين وعائلاتها وقبائلها، قد تتساءل وما هو موقف هؤلاء؟ أين المجتمع المحلي؟ هنا نتوقف أمام حركة مقاومة من الاهالي بعد علمهم بنية الحكومة. والواقع ان نضال المحليين يعود الى نهايات عام 2012 حين اعترضت القبائل على مشروعات تخطيط مدينة مليونية دون اعتبار لاحتياجاتهم وعلاقتهم بالأرض الممتدة على مئات السنين. وقد اجبر موقف السكان المحليين ان يقرر وفد برلمانى من لجنة الاسكان بمجلس النواب السفر إلى منطقة العلمين لبحث تداعيات إقامة المدينة على مساكن البدو. وتبعا لما نشر فقد واجه الوفد رفضا قطعيا من شيوخ القبائل.

جريمة تخدير الوعي و"سكوت هنصور"

أذا كانت هذه هي العلمين الجديدة فاين هي العلمين القديمة ومبانيها والأهم سكانها؟ وما هي العلاقة بين المدينتين؟ أين هي ملامح هذه التنمية العمرانية المستدامة إذا لم نسمع كلمة واحدة عن المجتمع المحلي؟ ما هي شخصية المدينة وأهم مقوماتها؟ ما هي قاعدتها الاقتصادية؟ من سيَدرس في الجامعة؟ من سيضخ

الاموال اللازمة للاستثمار في بناء هذه المدينة؟ من سيقيم في هذه المدينة ويجعلها مكانه وموطنه وليس فقط مصيف تنتعش فيه الحياة لأسابيع معدودة؟. أين المصريين في هذه المدينة؟ كيف فشلنا على مدار عقود طويلة في ان نجعل الساحل الشمالي مقصدا سياحيا اقليميا وعالميا لشهور طويلة بدل من حياة محدودة محلية لمدة ستة اسابيع كل عام؟ إذا كان الهدف من مدينة العلمين الجديدة هو إضافة بائسة لمشهد الانتصارات الزائفة وتكثيف دراما سينمائية الانجازات، فقطعا حقق الفيلم هدفه شديد المحلية. أما اذا كان الفيلم يوضح لنا كيف تخطط وتبنى المدن في القرن الواحد والعشرين، فلا يمكن إلا إستدعاء كلمات ميخائيل نعيمة : ”المدينة العظيمة هي التي يسود فيها العلم والحرية والإخاء والوفاء، هي التي يسير فيها الذئب والحمل والنمر والجدي معا".

التفريغ المادي والمعنوي لميدان التحرير

لم يعد خافيا على احد ان هناك جهد منظم لإعادة تشكيل الوعي المصري حتى يسقط تماما اي قيمة معنوية او انسانية او نضالية لثورة 25 يناير 2011. هذا الطرح يمكن ان يختبره بمزيد من الحرفية والعلمية خبراء علم الاجتماع والعلوم السياسية. اقدم هنا دلائل لان هذا الجهد يتناول ايضا اعادة تشكيل الوعي العمراني والمعماري والادراك المكاني لقلب ثورة يناير: ميدان التحرير. وذلك من خلال التغيير المادي والتفتيت المكاني للبنية العمرانية للميدان. تأمل المشاهد التالية وهي ترصد ماذا حدث وماذا يحدث لميدان التحرير في الثلاث سنوات الاخيرة. تأمل الجهد الهادف الى محو معنوي ومادي لكل الفصول التي يوثقها الميدان والتي تتعلق بقيم النضال والثورة والمطالبة بأسمى قيم الانسانية: الحرية.

وتأسيسا على ذلك يمكن توثيق الملامح والمقومات الاساسية لعملية تفريغ التحرير في النقاط التالية:

- إخلاء مجمع التحرير: مبنى مجمع التحرير هو احد اهم المباني التي تشكل الجدار العمراني لفضاء ميدان التحرير. وأصدر محافظ القاهرة قرارا بإخلائه قبل 30 يونيو 2016 (نشر التصريح في (جريدة الوفد عدد الجمعة 1 يناير 2016) . وأوضح القرار أن إخلاء مجمع التحرير يهدف إلى تخفيف الضغط عليه وعلى ميدان التحرير و منطقة وسط البلد، على أن يتم نقل المصالح الحكومية المتواجدة به إلى المدن الجديدة، وإعادة أفرع المصالح التابعة للوزارات إلى مقر كل وزارة.
- المتحف المصري وانتقاله الى متحف جديد على طريق القاهرة الاسكندرية الصحراوي، وتحول المقر الحالي للمتحف وسياقه المحيط إلى ثكنة عسكرية امنية طاردة لأهل المدينة.
- تهميش مسجد عمر مكرم وانهاء دوره الاجتماعي بعد ان كان احد اهم اماكن التواصل للدوائر الرسمية خارج نطاق العمل وذلك باستخدامه الاشهر مقرا لسرادقات عزاء علية القوم واصحاب المناصب.
- هدم مبنى العلوم بالجامعة الامريكية وازالة حائط الثوار: قرار الجامعة الامريكية بهدم مبنى التعليم المستمر والرياضيات بعد ان انتقلت الجامعة فعليا الى القاهرة الجديدة. حيث قررت الجامعة إزالة مبنى العلوم الكائن بحرمها بميدان التحرير وتحويل مكانه إلى حديقة خضراء في إطار

الخطة العامة للدولة لتجميل ميدان التحرير (تصريح الجامعة المنشور يوم 20 سبتمبر 2015). اما ازالة الحائط الذي وثق عليه فنانو الثورة وجوه شهداء ثورة 25 يناير فقد اتسمت تبريرات الهدم بالسطحية والسذاجة فقد صرحت إدارة الجامعة انه من أجل إزالة مبنى العلوم بحرم التحرير كان لابد من إزالة السور المتاخم له لدخول المعدات اللازمة ولإتمام عملية الهدم.

حالة سياق ميدان التحرير: عبقرية وانتقائية الهدم في المشهد العمراني

أمتد الجهد المنظم لتفتيت بنية الميدان إلى سياقه المحيط وما يحتويه من رموز قد يؤدي الحفاظ عليها الى إعادة مشهدية الثورة. تبرز في هذا السياق قصة مبنى المقر الرئيسي للحزب الوطني الحاكم في عصر حسني مبارك. عهد الى محمود رياض اهم رواد الحداثة المصرية، بتصميم وتشييد مشروع انشاء المقر الجديد لمبنى "بلدية القاهرة" في عام 1959، وبما يسمح للعاملين بها بترك أماكن عملهم وإقامتهم المؤقتة في قصر عابدين. وفي اثناء حكم السادات تحول المبنى إلى مقر الحزب الوطني الديموقراطي واستمر مقرا للحزب الحاكم في فترة مبارك. وتم حرق المبنى يوم 28 يناير عام 2011 باعتباره دلالة على عصر الظلم وانعدام الديمقراطية.

وبعد الثورة نوقشت افكار للتعامل معه منها تحويله الى متحف للثورة أو فندق عالمي. وفي 16 ابريل 2015 نشرت جريدة الاهرام خبر تكليف مجلس الوزراء محافظة القاهرة السير فى إجراءات هدم مبنى الحزب الوطنى مع إسناد أعمال الهدم للهيئة الهندسية للقوات المسلحة، على أن يتم تحديد استخدامات الموقع الانتهاء بقرار من المجلس. وعلى الرغم من التقارير الرسمية للسلامة الهيكلية للمبنى، وتقارير القيمة التاريخية والرمزية للمبنى ودلالته بالنسبة لثورة 2011، تم هدم المبنى. نادي بعض النقاد المعماريين، بمقترح لعمل مسابقة معمارية لتحديد الاسلوب الامثل للتعامل مع المبنى. والواقع ان هذا التوجه اذا لم يواكبه ارادة وطرح فكري يتبنى اهمية الحفاظ على المبنى ثم تقديم المسابقة كأطروحات ابداعية لإعادة استخدامه بمعطيات تاريخه واللحظات الفاصلة التي عاصرها ثم النهاية الدرامية بحرقه يوم 28 يناير 2011 تعبيرا عن اسقاط اهم ادوات سيطرة النظام المباركي وهو الحزب الوطني.

ان قرار إنهاء مصير هذا المبنى يمكن تفسيره كأمتداد واضح لسياسة تفريغ ميدان التحرير وسياقه. حيث أن المبنى يمثل فصل من تاريخ مصر النضالي والثوري يجب نسيانه من الذاكرة تبعا لأطروحة النظام الحاكم. لأن المبنى فصل ثوري والثورة ضد مبادئ الاستقرار الزائف الذي سوقوا له بامتياز ولعقود طويلة. ولا يدرك هذا الفريق، بأطماعه السياسية المحدودة، ان الذاكرة الجمعية للشعوب تجسدها المباني العامة حتى لو شيدت في حقبات تغيرت او تبدلت او حتى ثار الناس عليها. وان السعادة بالهدم هي سعادة الهزيمة وتزييف التاريخ.

مشهد جمعة الأرض: إزاحة ميدان التحرير من منظومة الفراغ العام

نجح النظام في استخدام بعض رموز النخبة المصرية من اجل إعادة صياغة معنى وقيمة ميدان التحرير. وقد تميز بعضهم في الانحياز الكامل لكل ما يدعم الثورة المضادة، وخاصة من حيث اسقاط قيمة الفضاء العام وخاصة ميدان التحرير. وخلافا لمشهد اندفاع الثوار في 25 يناير 2011، فأن فعاليات التظاهرات التي أطلق عليها جمعة الأرض تقدم فهما إضافيا لاستراتيجية النظام ليس فقط في تشويه التحرير، ولكن إخراجه بالكامل من منظومة الفراغات العامة وفضاءات التعبير في مدينة القاهرة. استوعب النظام الدرس ومن ثم أغلق ميدان التحرير تماما كما انتشرت ما يسمى باللجان الأمنية والحواجز والكمائن في كل الشوارع الرئيسية المؤدية الى الميدان بالإضافة الى الشوارع المؤثرة الاخرى في قلب العاصمة القاهرة. كان التنازل عن الجزيرتين سببا لنوع من الاجماع الشعبي المؤقت ومحور لقاء بين من المنقسمين. وكما أشار المراقبين فأن النظام تراجع عن النسق الذي أستخدم في 25 يناير وهو هجوم عناصر الحزب الوطني والبلطجية على المعتصمين بالتحرير. حيث استبدل هذا النسق بالاعتداء على بدايات المظاهرات واماكن انطلاقها من قبل بلطجية محترفين مأجورين. اذن اصبح التوجه هو الاعتداء الشعبي المزيف على بدايات التظاهرات والمنع النهائي للاقتراب من محيط ميدان التحرير البعيد والمغلق بأحكام تام.

إغتيال تصورات ورؤى مستقبل التحرير

كانت فكرة إعادة صياغة فضاء الميدان قد بلورها قرار الدكتور هشام قنديل رئيس الوزراء، بطرح مسابقة عالمية لتصور معماري لتطوير ميدان التحرير والمنطقة المحيطة بها. على أن يصاحب عملية التطوير تصويت شعبي في كل مرحلة بما يضمن مشاركة مجتمعية حقيقية. انتهت كل هذه المبادرات مع تحول ثورة 25 يناير الى نكسة 25 يناير بفعل جهد اعلامي منظم ومدعوم رسميا. لم يعد للتحرير قيمة، وحتى اساتذة العمارة والعمران وجهاز التنسيق الحضاري ونقابة المهندسين (شعبة العمارة) وجمعية المعماريين فكلهم مع سبق الإصرار والترصد نسوا او تناسوا التحرير. كل الأطروحات الخاصة بمستقبل الميدان كفضاء عام للشعب وأرضا لتمجيد شهداء يناير، صمتوا عنها جميعا صمتا مخجلا. ولكن التاريخ يقول وفضاءات المدن حول العالم تصرخ: لا تموت الفضاءات العامة ابدا طالما الشعوب حية ثائرة.

قاهرتين وسطحين وغيتارين

لم تكن مصادفة ان تتخذ اغنية عمرو دياب ومحمد منير الجديدة المعنونة "القاهرة ونيلها"، من سطح جناح فاخر اعلى برج يطل على نيل القاهرة، مسرحا لتصويرها ونشرها في الصورة النمطية المعروفة باسم "فيديو كليب". المغني الرئيسي دياب والضيف منير لا يعيشا في القاهرة تبعا لما هو موثق في الخمسة اعوام الاخيرة، بل ان الاخير تواجد في القاهرة لأقل من 72 ساعة لتصوير المشهد. تعود الاثنان على استخدام السياق البصري لمدن اوربية مسرحا لأغانيهم، او ان يبعدا تماما عن القاهرة حيث يجدا في مجتمعات المنتجعات الشاطئية المغلقة مجالا لتصوير أغانيهم. حالة شرم الشيخ والغردقة مثالية لكلاهما، وهي مدن تحولت بكاملها الى مجتمعات مغلقة يمنع غالبية الشعب المصري من حتى الوصول اليها. يجلس الاثنان ومعهم مجموعة من العازفين

يبرز بينهم عازف الة الجيتار اللاقاهرية. يندمج الجميع في التمتع بحديقة السطح الرائعة والاطلالة الفريدة على نيل القاهرة وتنطلق من حناجرهم جمل الشاعر تامر حسن قائلين:

"القاهرة ونيلها وطول ليلها
وأغانيها ومواويلها وحكاويها آه يا جمالها
القاهرة تجيلها تحنلها
وتهواها ما تنساها وتتحاكى بأحوالها"

يتأمل المشاهد العرض ويندهش من منير وهو يضرب بيده على خدوده، (فكرة اللطم على الخدود في الثقافة الشعبية المصرية ترتبط بمواجهة المصائب الكبرى!!)، وكأنه قد ايقن مبكرا انه في مأزق وهو على السطح الفاخر يتحدث عن قاهرة لا يعرفها الا نسبة شديدة المحدودية من سكانها. اما باقي اهلها فهم في حالة معاناة يومية مستمرة مستدامة، بل ان المدينة ترفضهم وتهمشهم ويبنى حول نيلها حوائط عالية وبوابات عملاقة، تفصله عنهم كل الفصل.

"هما ليهم قاهرتهم اللى بيشوفوها من لندن وبرلين ..
واحنا لينا قاهرتنا اللى بنشوفها فى شبرا والعباسيه
والسيدة عيشه والحسين وكل المناطق العشوائية". ”
كريم الشافعي.

من هذا المنطلق، لم يكن مفاجئا ان تقدم صورة مزيفة للأغنية ولكنها شديدة الصدق والاصالة. نعم فقد قام بعض اهل القاهرة المهمشين الحقيقيين بإعادة صياغة الاغنية باستخدام نفس اللحن ونجحوا في انتاج الصادق المزيف او المزيف الصادق. فمن جانب، فقد استخدمت المجموعة سطح حقيقي وانتجت فيديو كليب في موقع يتطابق مع الالاف اسطح العمران اللارسمي الذي كان الملجأ الاخير لتلبية احتياجات المجتمع المحلي من مأوى لأسرهم واولادهم.

هؤلاء المهمشين هم مجموعة من الشباب المصريين الهواة قاموا بإنتاج فيديو كليب ساخر يحاكي أغنية دياب ومنير "القاهرة ونيلها"، تحت عنوان "القاهرة تسبلها". الأغنية من كلمات أحمد عبد الحميد، وغناء محمد إسماعيل وألحان عمر محمد. واعتمدت المجموعة على التصوير على سطح إحدى البنايات غير منتهية البناء، ويظهر فيها عمارات بالطوب الأحمر والشوارع الضيقة التي يسكن فيها معظم سكان القاهرة.

"القاهرة بشيلها بمشاكلها وبلاويها.
انا شايلها بقالي سنين على حالها.
القاهرة تجيلها تسبلها وتلعنها وتشتمها وتتمنى تغور منها".

ملاحظة ختامية

ما بين قاهرة دياب ومنير وقاهرة اسماعيل وعبد الحميد، يتبلور مشهد الانفصال الكامل بين واقع مؤلم وطرح غنائي خيالي مزيف منفصل كامل الانفصال عن المجتمع. المدهش ان مؤلف الاغنية وهو يدافع عنها قال ما معناه انها مساهمة في تنشيط السياحة في مصر، وهو هنا لا يعي ان تنشيط السياحة في مصر لن يتحقق الا باحترام اهل مصر وعدالة التعامل معهم وخاصة في حقوقهم. ما بين الاغنيتين ايضا، لا يدهشك ان تقرأ تصريحا لوزير الاسكان يقول فيه انه لن يتضرر مواطن مصري واحد من سكان منطقة ماسبيرو اثناء تطويرها وتحويلها الى مناطق ابراج سكنية وفندقية وتجارية. اعتقد ان منير يحتاج ان يلطم مرة بل مرات اخرى.

الفوضى العمرانية الخلاقة في الميدان وعلى الجسر

مرتكزاً على مفاهيم النضال من اجل الحرية بمستوياتها المختلفة، ومستوعبا لتداعيات الفوضى وتنوع تفسيراتها ومنطق تقييمها، يطرح هذا المقال مفهوما مغايرا يرى في "الحرية البديلة اللارسمية" التي تنتجها الثورات الشعبية الصادقة في المدينة العربية، نوعا جديدا من الفوضى توصف بانها "الفوضى الشعبية الخلاقة". هذه الحرية البديلة والفوضى الخلاقة، التي تتجاوز الاطار الأبستمولوجي المدرك عن الفوضى، تبلورت تجلياتها أثناء، وبعد ثورة الشعب المصري في 25 يناير 2011. يقدم المقال طرحا يناقش كيف تبلورت ظاهرة الفوضى في المدينة العربية من خلال فضاءات عامة في نسيج المدينة، وخاصة ميدان التحرير في القاهرة. كما يقدم قراءة مغايرة لفكرة الفوضى تقترح أنها

بالفعل يمكن ان تكون لها ابعادها الايجابية في السياق العمراني والانساني، وليس فقط في السياق السياسي. القراءة المطروحة لفكرة الفوضى، وكيف يمكن ان تتحول من صفة سلبية الى قيمة خلاقة، تتبلور من خلال تحليل مشهدين أساسيين على جسور القاهرة وفي فضاءات ميادينها العامة.

مشهدان في سردية القاهرة الفوضوية الخلاقة

المشهد الأول: شرفات عامة على النيل

حرم الشعب المصري من الإطلال على النيل، وأصبحت خصخصة النهر وضفتيه عائقا يحرم المصريين من التواصل مع النهر. من هنا تأتي اهمية الرصد العادل لما سمي فوضى الجسور في مدينة القاهرة. لقد تقدم العشرات من الشباب لاستغلال الجسور القاهرة المطلة على النيل وفي غيبة السلطة ونشوة الحرية ونجاح الثورة، قدموا بدائل لعلاقة المصري مع النهر. وبدأ نسق جديد من التعامل مع نيل القاهرة يظهر من بداية الالفية الثالثة، رصد في تحويل الاجزاء المطلة على النهر من جسر السادس من اكتوبر الى وقفة احتفالية هي الاهم على مسار موكب حفلات زفاف الطبقة المتوسطة. ومع وجود الجماعات الانسانية، ومهما كانت محدودية عددها، تنشط الاستخدامات المساعدة فبدأت الجسور تستقطب الباعة الجائلين لتقديم المشروبات والمسليات للمتنزهين.

بساطة الفكرة ايضا ادت الى انتشارها السريع، فكل ما تحتاج هو مجموعة من الكراسي البلاستيكية وموقد لتسخين المياه ووصلة كهربائية مقترضة "بنية

حسنة" من عامود انارة على الجسر. وازداد ابداع الشباب الفوضويين المستغلين للنهر فتجاوزت الاستعمالات تقديم الشاي وتطورت الى عربات الكشري واركان شوي الذرة بل وقدرة الفول الشهيرة تقدم عشاءا رخيصا وشهيا لعائلة تتناول الطعام وتتأمل صفحة النيل. هذا الفعل الذي لم يكن حتى يدور في فلك احلام المصريين القاهريين بعد ان تم احتلال كل ضفاف النيل بمعرفة الشرطة والجيش والقضاء وغيرهم. تدريجيا تحولت الجسور الى شرفة عامة نشطة حيوية بكل ما تعنيه الكلمة. وبصورة لا يمكن رصدها الا في الوثائق الفوتوغرافية القديمة لكورنيش القاهرة عندما كانت كل ضفاف نهر النيل متاحة للشعب مرحا وتنزها وتأملا وعشقا والهاما بل وتعبدا. ومع تطور جلسات هذه الشرفات العامة (الجسور) وتقديمهم جرعة من الموسيقى والغناء عبر مكبرات الصوت تحول عبور الجسر سيرا على الاقدام الى حالة من الاختراق لاحتفالية اجتماعية غنائية وموسيقية نرصد فيها ملامح فرح وسعادة على وجوه اطفال ونساء ورجال وشيوخ كانوا يعتقدون ان نصيبهم من السعادة على نيل القاهرة قد انتهى وللأبد.

المشهد الثاني: ميدان التحرير

تحول الميدان إلى ملتقى تفاعلي بين تقاليد محلية وطنية وبين تدفقات عالمية دولية لأفكار ومبادئ شغلت كل من سكن الميدان وسكنته روح الميدان. حالة ميدان التحرير الفراغية ينطبق عليها التصنيف الشهير لعالم الاجتماع الفرنسي هنري لوفيفر (1991)، وهو الفراغات المعاشة Lived Spaces التي تتجاوز

الفراغات المتخيلة او المدركة ، وتتحول الى فراغات حقيقية عميقة في حياة وذاكرة الناس. ويوضح لوفيفر أن "امتلاك المكان المتخيّل يكون عبر الغرق في التاريخ ورموزه، كالمشاهد الشعبية القديمة". وهنا نستطيع فهم محاولات الهجوم الحاد على كل ما هو شعبي تراثي عفوي واتهامه بأنه فوضوي هادم ومخرب. كما يوضح لوفيفر أن "السيطرة على البعد المتخيّل للمكان وضبطه، تتم من خلال خلق حالة من الخوف والحيازة وعدم الألفة، بجعل الحدود والأطراف أمكنة للقمع والرقابة، في مقابل الرأسمال الرمزي المركزي (لوفيفر 1991، 2003) "، ومن هنا تنطلق دعاية "الجماعات التخريبية الفوضوية في التحرير".

ولكن عبقرية الميدان انه أيضا احتوى التصنيفين الآخرين، فقد مثل رؤية وحلم لكثيرين منهم من لم ير الميدان حتى الآن. هناك بعد أخر هام في فهم الميدان وتركيبته وهو التمكن من السيطرة الرقمية والمادية على صورة الميدان. كان البعد الرقمي من خلال شبكات التواصل الاجتماعي التي همشت وفضحت الآلة الإعلامية الفجة للدولة. أما البعد الثاني فهو مادي تم فيه السيطرة الكاملة على أهم ميادين مصر لتأكيد رفض سيطرة الدولة وإسقاط قيمتها وتحدي آلتها الأمنية الشرسة. وعلى الرغم من انه يمكن الجزم بان فكرة الثورة كانت نتاح حوارات الفراغ الرقمي العام على شبكات التواصل الاجتماعي بالشبكة العنكبوتية، إلا ان تلك الفكرة لم تتحول الى حقيقية هادرة جذبت ملايين من الشعب المصري إلا عندما تواجد الآلاف ثم الملايين فعليا في ميدان التحرير وقدموا ملاحم يومية من الصمود والمقاومة والتضحية. هذه التحولات شديدة الجدة على شعب يتعامل مع

كل ما هو عام من منطلق "ملك الحكومة" وهي صياغة تعني الرضوخ والاستسلام، كما انها تخلق عدائية بين الإنسان والمكان. لقد حرم الشعب المصري لسنوات بل لعقود من ممارسة اي أنشطة اجتماعية او سياسية جماعية في الفراغ العام وكسر ميدان التحرير هذا الحاجز النفسي والمادي الجبار.

ان ما تبين جليا من المشهدين ان الشعوب المتعطشة الى علاقة متميزة مع الفراغ العام تنطلق في فوضوية لإعادة امتلاك هذا الفراغ حين تتاح لها الفرصة. وفي هذه الانطلاقة التي تبدو عشوائية وفوضوية تتبلور انساق متميزة من استعمال الفراغ ودفق الحياة به من خلال علاقات اكثر مصداقية في التعبير عن متطلبات المستعملين وتطلعاتهم ومحاور إسعادهم. وتبلور اهمية وجود مكان لفضاءات ديمقراطية، وهي فراغات لا تنتقي، وتسمح للجميع بالتفاعل والتعبير عن النفس وعن الجماعة. فراغات لا تعاقب على فقر بعض قطاعات المجتمع او معظمها كما هو الحال في مصر ولا تحتفي بثراء النخبة المستثناة. هذا هو الفراغ الديمقراطي وهذه هي المدينة العادلة. هذه الفراغات ترفض الجدران والأسوار والحواجز التي تحد حركة الإنسان داخلها. من الأساسي ايضا ان ندرك، ان المنظر والمفكر والمعماري والعمراني (المهني الممارس او الاكاديمي الباحث)، يحتاج الى الكثير من التروي والتمهل قبل اصدار احكام عن فوضوية المكان وعشوائية الاستعمال.

ان حيوية جسور القاهرة حين تستخدم كشرفات عامة مفتوحة للشعب ليسعد بإطلالة على النيل او تحول ميدان التحرير من عقدة مرورية الى فراغ تملؤه مراكز نشطة تسمح بالتفاعل الانساني والاجتماعي والثقافي بل وحتى الابداعي هي في الواقع امثلة بينة على ان الفوضى العمرانية يمكن وصفها بانها خلاقة احيانا. ان القيمة الحقيقية للعمل الثوري انه يحقق تطلعات المجتمعات للعدالة، ولكن ليس فقط العدالة بمفهومها المعنوي الأخلاقي ولكن أيضا بمفهومها المادي المحسوس. إن ثورة تحقيق عدالة وديمقراطية العمران وإعادة النيل للمجتمع المصري هي جزء لا يتجزأ من استمرارية ثورة 25 يناير 2011. ولذا فان استقلال الفراغ العام واحترام متطلبات المصريين هو عمل ثوري بامتياز.

الكاتب

الأستاذ الدكتور علي عبد الرءوف معماري ومصمم عمراني ومخطط وناقد وكاتب وأستاذ جامعي، حصل على الدكتوراه في دراسة الإبداع المعماري والعمراني من جامعتي القاهرة وكاليفورنيا، بيركلي بالولايات المتحدة عام 1996، وعلى درجة الماجستير في النقد المعماري والعمراني وبكالوريوس العمارة من جامعة القاهرة. يملك د. عبد الرءوف اكثر من ثلاثين عاما من الخبرة الاكاديمية والبحثية والاستشارية، وقد شغل منصب رئيس قسم العمارة في جامعة العلوم والفنون، كما عمل منسقا لبرنامج التخطيط العمراني بجامعة قطر. وقام د. عبد الرءوف بتدريس التصميم والنقد المعماري والعمراني ونظريات العمران وتخطيط المدن في عدة جامعات أهمها القاهرة، البحرين، قطر، حمد بن خليفة، والعلوم الحديثة والفنون. وتتعدد الاهتمامات البحثية له لتشمل المجالات التالية: مدن الخليج المعاصرة، الفراغات العامة في مدن الربيع العربي، عمران ما بعد البترول، القيمة الابداعية للتراث المعماري والعمراني في المدن العربية. وقد حصل د. عبد الرءوف على عدة جوائز محلية وإقليمية في العمارة والتخطيط والنقد والبحث العلمي، ونشر أكثر من 95 ورقة بحثية ومقالات وتقارير فنية منشورة في المؤتمرات الدولية والدوريات العالمية. كما تم دعوته لإلقاء محاضرات في جامعات اكتر من 25 دولة اهمها كمبردج وكلية لندن بإنجلترا واوريجون ودروري وشيكاجو بأمريكا وليبزج بألمانيا وماليزيا وسيول بكوريا ولوفن في بلجيكا واسطنبول وعبد الله جول بتركيا وصربيا والجامعات الامريكية في الشارقة والكويت ولبنان ومعظم جامعات الخليج. كما انه مؤلف مشارك في عدة كتب باللغة العربية والانجليزية ومؤلف منفرد لكل من كتاب النقد المعماري ودوره في تطوير العمارة المعاصرة 2014، وكتاب من مكة الى لاس فيجاس: اطروحات في العمارة والقداسة عام 2014، وكتاب المدينة والعمارة والرواية (2016)، وكتاب مقالات نقدية في العمارة المصرية (2016)، وكتاب ميدان وثورة وشعب: القصة المعمارية والعمرانية لميدان التحرير (تحت الطبع 2016). بالإضافة إلى مساهماته المنتظمة في العديد من المجلات المعمارية والثقافية. للتواصل: alialraouf@gmail.com

علي عبد الرءوف

خيمياء العمارة، الناس والأماكن

http://analchemyofarchitecture.blogspot.qa/

An Alchemy of Architecture, People and Places